غزوات الرسول

صلى الله عليه وسلم

المركز العربي الحديث

١٠٣ شارع الإمام علي - ميدان الإسماعيلية - مصر الجديدة -

القاهرة ت: ٢٧٠٦٠٤٨

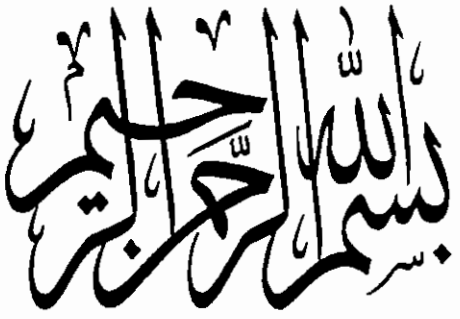
بسم الله الرحمن الرحيم

غزوة بدر الكبرى

عَلِمَ رسولُ الله ﷺ أنَّ قَافلةً تُجارية كَبيرة مُحمَّلَةً بثَروات طَائلة من كُفَّار قُريشْ قَادمَةً منَ الشَّام فِىْ طَرِيقِهَا إلى مكَّة يَحرُسُهَا أربَعُونَ رَجُلاً عَلَى رأسِهِمْ أبُو سُفْيَان .

فَاعْتزمَ النَّبى أنْ يَعْتَرِضَ طَرِيقَ هَذه القَافلَة فَيُصَادرُهَا فتكُونُ ضَربةً قَاصمة ضدَّ المُشْركين لَوْ أنَّهُمْ فَقَدُوا هَذه الثروة فَدَعَا أصْحابهُ للخُروجِ مَعَهُ للاسْتيلاء عَلَيها .

فَلَبَّى دَعْوةَ رسولْ اللَّه ﷺ ثَلاثُمائةً وثلاثةُ عَشَر رَجُلاً من المهاجرينْ والأوس والخزرجْ فَخَرَجوا من المدينة ومعهم فرسَان وَسَبْعون بَعيراً وسَلَكُوا الْطريق المؤدية إلى بَدْرٍ وكَانت (بَدْر) تَمرُّ عَليها القَوَافلُ .

ولَكنْ أبا سُفْيان كَانَ عَلى غَاية منَ الحيطة والحذْر فَقَد كَان يَعْلَمُ أنَّ طريقَ مكة مَحفُوفٌ بالأخطار وكَانَ يَتَحَسَّسُ الأخبار ويسألُ كُلَّ من يُقَابلُهُ من المسَافرينَ فَوَصلَ إلى أسْماعه خَبرُ خرُوج رَسُول اللَّه ﷺ وأصْحابه .

أسرعَ أبُو سُفيان فأرسل أحد أصحابه إلى مكَّةَ يُعلمهمْ الخَبر ويسْتَنجدْ بهم . . فلَمَّا أتَى الرجلُ مكَّةَ راحَ يُطلق النفير ويَصرُخ قَائلاً : يا معْشرَ قُرَيشْ يا معْشرَ قُرَيشْ الغَوْثَ الغَوْث ، أموالكُم قد تَعَرَّضَ لها محمدٌ وأصحابُهُ .

سَارع كُفّار قُريشْ بالخُروج لنَجْدَة أبى سفيانْ فَخَرجُوا تَحتَ قيادة أشرافُهمْ فى جيشِ قَوامَهُ ألفٌ وثُلاثمائة مُقَاتلْ مَعَهُم مائةَ فَرس وَستُمائةُ درْع وَسُبْعمائة بعير مُحْملةً بالزاد والعَتاد بقيادة أبى جَهْل.

تَحرّكَ جَيْشُ الكُفَّار بسرعة فائقة نحو الشَّمال فى اتجاه بَدْر وفى الطريق وَصَلَهُم رسُولٌ من أبى سُفْيَان يُخْبرهُم بنجاته هو وَقَافلته لأنه اتبع طريقاً غير طريق القوافلْ المَعْروف وَيَطْلب إليْهم الرجوعِ إلى مكَّة.

صَاحَ أبُو جَهل فى كبرياء وَغَطْرسة: (والله لا نرجعْ حتى نَذْهبَ بَدْراً فنقيمُ بها ثلاثةُ أيام نذبَح الغْنَمْ ونُطْعمْ الطَّعَامَ وَنَشْربُ الخَمْرَ وَتعزفْ وتُغَنى لَنَا الجَاريَات وتسمعْ بنا العربَ فَيَهابُونَنا أبدَ الدَّهر).

وَتَردَّد قومٌ من المشْركين وأشَار الأخْنَسُ ابْنَ شُرَيْق إلى قَوْمه من بنى زُهْرة بالرجوع قائلاً: لَقَد أتينا من أجل أموالنا وتجارتنا ولأن مُحمداً وأصْحابه لم يتعرضُوا لها فَلَيْسَ مِنَ الحكمة أن نذهب إلى بَدْر.. هَيَّا يا رجالْ.

تَقَدَّمَ أبو جهل إلى بدر ومعهُ جيشُ المشركين قوامُه ألف رجلٌ بعد رجوع بنى زُهرة فلما وَصَلَ أبو جهل ومن معه هناك أقاموا فى جانبٍ منْ وَادى بَدْر وَرَاحوا يحتفلون فى كبرياء وَغُرور.

وَفى الطَّريق انْطَلق المسْلمُون يُحاولون حَيْثُما مَرُّوا أنْ يَقفُوا على أخبار القافلة حَتَّى لا تَفْلتَ منْهُمْ فَلَمَّا وَصُلوا إلى (وادى زفران)

نَزَلوا فيه وَهُنَاك جَاءَهُمْ الخبرُ أنَّ قُريشاً قَدْ خَرَجَتْ مِنْ مكَّةَ فى جيشٍ كبيرٍ للدِّفَاعِ عَنْ أمْوَالِها .

ونظراً إلى هذا التَّطَوُّرْ الخَطير المفَاجِىء عَقَدَ رَسُولُ الله ﷺ مجلساً عَسْكرياً استَشَارَ فيه أصحابهُ وتبادل فيه الرأى مَعَ عَامَّةَ جيشه فاْحتَجَّ البعض قائلين : لقد أتينا لملاقاة قافلةَ التِّجَارة ولم تَذْكُر لنا إنَّكَ مُقدم على القتال مع جيشِ المشركين .

أما قادة الجيش وَمنْهُمْ أبُو بكْر الصِّدِّيق وَعُمَرُ بن الخطَاب فقالا كلاماً طيبًا كُلُّه إيمانَ وأظهرا اسْتعَدَادَهُما للقتال فى سبيل الله وَكَذلك فَعَلَ المقدادُ بْنُ عَمْرو قائلاً : يا رسُوْلَ الله امضِ لما أراكَ الله فنَحْنُ معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسْرَائيلُ لموسَى : اذهبْ أنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتلا إنا مَعكُمَا مُقَاتلُونَ، فَوَ الَّذى بَعَثكَ بالحقِّ لو سرْتَ بِنَا إلى أقْصَى اليمن قَاتلنَا بشدة مَعَكَ حَتَّى يُؤيدُنا الله بنَصْره .

كذلك فَعَل سعد بن معاذ سَيِّد الأوْس فَأشْرقَ وجهُ النَّبى وقال لَهُمْ خيراً وَدَعَا لهم ثم قال : سيْروا وأبْشرُوا فقد أوحى الله إلىّ وَوَعدنى إحْدَى الطَّائفتين قَافلةُ التِّجَارة أوْ جَيْشُ المشْركيْن .

وتَحرك جيش المسلمين من وادى زَفْرَان حَتَّى وَصَل قريبًا منْ بَدْر وَهَناك قامَ رَسُول الله ﷺ بنفسه بعَمَلية الاسْتكشَاف مَعَ رفيقه أبَى بكر وَبَيْنَما هُمَا يتجولان بالقُرْب منْ مُعَسْكر المشْركينَ بِبَدْر رأيا شَيخاً من العرب يَمْتَطى حمَارَهُ .

فَسَأَلهُ رَسُولُ الله ﷺ عَنْ رجال قُريش وَعَنْ محمد وأصْحَابه زيادةً فِى التكتم فَقَال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبرانى ممَّنْ أنتما؟

إذَا أخْبَرْتَنا أخْبَرْنَاكَ

قال الشيخ : بلغنى أنَّ مُحمَّدًا وَأصْحَابَهُ فى وَادى زَفْران أما عَنْ جَيْشِ قُريشٍ فَهُم قَريبونَ منْ هُنَا فى مُعَسْكَرِهِمْ .

فَلَمَّا عَادَ النَّبى وَرَفيقهُ أبُو بكْر إلى مُعَسْكر المسْلمينَ كَانَ الليل قَدْ حَلَّ فبَعَثَ ثلاثةً منْ أصحابه بَعْدَ أنْ حَدَّدَ لَهُمْ مكَان جَيْش المشْركينَ للاسْتطْلاعِ وَمَعْرفَةَ أخْبَار العَدُوْ .

فلمَّا ذَهَبوا للاسْتطْلاع ظَفَروا بُغلامين من قُرَيْش يَسْقيان من مَاء بَدْر لجيش المشْركين وَجَاءوا بهما إلى الرَّسُول ﷺ فعلم منْهُمَا عَنْ مكانهم وَعَدد جنودهم ثُمَّ سَألهم : منْ فيهم منْ أشْرَاف قُرَيْش ؟

قَالَ الغُلامَان : أبُو جَهْل بْنُ هشَام وَأميَّةَ ابْنُ خَلَفْ وَحكيْمُ بْنُ حزَام وَعُتبةُ وَشَيْبةُ ابْنَا رَبيعةَ وأبُو البُخْترىُّ وَنَوْفَلَ بْنُ خُوَيلد والحَارثُ بْنُ عَامر وَطُعَيْمَةُ بْنُ عَدىٍّ والنَّضْر ابْنُ الحَارثُ وَزَمْعَةَ بْنُ الأسْود ، فَأقْبلَ النَّبى علَى أصْحَابه قَائلاً : هَذه مكَّةُ قَدْ ألقَتْ إليْكُمْ أفْلاذ أكْبَادهَا .

كَانَ المسْلمُونَ يُعَسْكرونَ بعيداً عَنْ الماء ولا مَاء لَدَيْهم فكَادَتْ تَتَثَبَّطُ عزائمهم وهم قريبوا عهد بالإسلام كما أن الإرْهَاقْ قد أخَذَ

منهم مَأخَذَهُ فأخذتْهُم سنَةٌ من النوم ثم أنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ فى تلْكَ اللَّيْلَة بمطر مدْرَارْ فشَرِبوا منْهُ واغْتَسَلُوا وتبلَّدت الأرض التى تَحْتَ أرْجُلهمْ مما أَدْخَلَ النَّشَاطَ والطُّمَأنينَةَ إلى قُلوب المسْلمينْ.

بَيْنَما كَانَ المطَرُ عَلَى المشْركينْ مُصيبةً فَقَدْ أوْحَلَتْ الميَاهُ أرضَهُمْ وَجَعَلَتْهُمْ لا يَسْتَطيعُونَ الانتقَالَ والتَّقَدُّم مما صَعَّبَ عليهم الأمر فَسَبَقَ المسْلمُونَ المشْركينَ إلى آبَار الماء وَمُنعَ الماءُ عَنِ المشْركينَ.

وَفى اللَّيل عَبَّأ رَسُولُ الله ﷺ جَيْشَهُ وَقَوَّمَ صُفُوفَهُ وَأمَرهُم أن لا يُبَادروا أعْدَاءَهُم بالهُجُوم حَتَّى يَأمُرهُم بذَلك وَإنْ هَاجَموهُمْ فَلْيُرَاشقُوهُمْ بالنَّبَال فَإذا اقْتَربُوا منْهُم فَبالسُّيوف.

وَفى الصَّبَاح أقبلتْ قُريشٌ نَحْوَ الوَادى فَلَمَّا رآها النبى قَالَ (اللهمَ هَذه قُريشٌ قَدْ أقبلت بخُيلائهَا وَفَخْرهَا تُحَادُّكَ (تُعَاديك) وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ اللَّهُمَّ فَنَصْرك الَّذى وَعَدْتَنى، اللَّهُمَّ أحنْهُمْ الغَدَاةَ).

نَظَرَ النبى إلى أصْحَابه وَهُم ثُلاثُمائَة وَثَلاثَةَ عَشَر وَنَظَرَ إلى المشْركين فَوَجدَهُمْ ألفًا فَقَال: اللَّهُمَّ أنْجزْ لى مَا وَعَدْتَنى اللَّهُمَّ إنْ تُهْلكْ هَذه العُصَابَةَ منْ أهْل الإسْلام فَلا تُعْبَدُ بَعْدُ فى الأرْض أبدًا، ثُمَّ رَاحَ النَّبى يُلْقى أوَامرَهُ عَلَى أفْراد جَيْشه.

ابتَدَأتْ المَعْركَةُ بمُبَارزَة بَيْنَ الأسْوَد المخزُومىُّ وَكَانَ رَجُلاً شَرساً سَيِّءَ الخُلُق وَقَد خَرَجَ إليه حَمْزَةُ بنُ عَبْد المطَّلب رضي الله عنه فَلَمَّا التَقَيَا ضَرَبَهُ حَمْزَةُ ضَرْبَتَيْن أتَتْ عَلَيْه.

ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَهُ ثَلاثَةٌ مِنْ خيرة فُرْسَان قُرَيْش وكَانُوا مِنْ عَائلة وَاحدة وَهُمْ عُتبة وَشَيْبة وَالوَلِيد بنُ عُتبة فَخَرَجَ إليهم ثَلاثَةٌ مَنْ شَباب الأَنْصَارَ وكَانَتْ نهَايةُ هَذه المبَارزةُ بدايةً سيئة بالنسبة للمُشْركينَ فَقَدْ فَقَدوا الثَّلاثة دفعةً وَاحدَة فَاسْتَشَاطوا غَضَباً وكَرُّوا على المسْلمينَ دُفْعةً وَاحدةً.

وَدَارَ القتَالُ عَلى أشُدِّه وكَانَ رَسُول الله ﷺ فى مُقَدَّمة المقَاتلين وَأقربَهمْ منَ العَدُوِّ فَلَمَّا حَمَى وَطيْسُ المعركة أخَذَ رَسُولُ الله حفْنةً منَ الحَصْبَاء وَألقى بهَا عَلى رجال قُريش قَائلاً: شَاهَتْ الوُجوهُ، ثُمَّ نَظَر إلى أصْحَابه قَائلاً: اهْجُمُوا عَلَيْهمْ.

فَمَا منَ المشْركينَ أحَدٌ إلا أصَابَ عَيْنَهَ وَأنْفَهُ وَفَمَهُ منْ تلْكَ الحَصْبَاء وَفى ذَلكَ أنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَولَهُ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنْفَال: ١٧]، فَلَمّا أصْدَرَ النَّبىُ الأمْرَ بالهُجُوم المضَاد كَانَتْ حدَّة هَجَمَات العَدُوِّ قد ذهبت وَفَترتْ حَمَاسَتُهُ.

وكَانتْ هَزيْمَةُ قُريش فَادحَة فَقُتلَ منْ قُتل منْ زُعَمَائهمْ وأسرَ مَنْ أُسرَ منْ أشْرَافهمْ وَبَدَأتْ أمَارَاتُ الفَشَلْ وَالاضْطراب فى صُفُوف المشْرينَ فَأخَذُوا فى الفرَار والانْسحاب وَركبَ المسْلمُونَ ظُهُورَهُمْ يَأسرُونَ وَيَقْتُلونَ منْهمْ حَتَّى تَمتْ هَزيمتَهُمْ.

وَبَعْدَ المعْركة أمرَ النَّبىُّ المسْلمينَ بأنْ يَطْرَحُوا قَتْلَى المشْركينَ فى

البئر فلمَّا ألقُوْا وقَفَ عليْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ وهُوَ يَقُولُ: يَا أهْلَ البِئْرِ يَا عُتبةُ بنُ ربيْعةَ ويَا أبا جَهْلٍ ـ وكَانَا قَدْ قُتلُوا ـ هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وعَدَكُم ربُّكمْ حَقًّا؟ فَإنِّي وَجَدْتُ مَا وعَدَنِي ربِّي حَقًّا . . . وهكَذا امْتَنَّ اللهُ بِهَذَا النَّصْرِ عَلَى المسْلِمينَ بِقَوْلِه تَعَالَى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

[آلَ عِمْرَان : ١٢٣] .

صَدَق اللهُ العَظِيْمُ .

***

غزوة بنى قينقاع

بَعْدَ أنْ هَاجَرَ النَّبىُّ ﷺ إلَى المدينة وَرَسَّخَ قَوَاعِدَ المجتمع الإسْلامىِّ الجَدِيْد رَأى أنْ يَقُومَ بتَنْظيم عَلاقَاته بغَيْر المسْلميْنَ لتَوْفيْر الأمْن وَالسَّلام والخَيْر للبَشَرِيَّة أجْمَعيْنَ.

وكَانَ اليَهُودُ فى ذَلكَ الوَقْتَ يَعيْشُونَ فى مكان بالقُرْب منَ المدينَة وَهُمْ يُبْطنُونَ العَدَاوَةَ للمُسْلمينَ لَكنْ دُونَ أنْ يُظهروا أيَّةَ مُقَاومَة فَعَقَدَ مَعَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ مُعَاهدَةَ حُسْنِ جوارْ.

وكَانَ منْ بُنُود هَذه المعَاهَدَة:

١- أنَّ يَهُودَ بَنى عَوْف أمَّةٌ مَعَ المؤمنينَ، لليَهُود دينُهمْ وَللمُسْلميْنَ دينُهُمْ، مَوَاليْهمْ وَأنْفُسَهُمْ وَكَذَلكَ لغَيْر بَنى عَوْف منَ اليَهُودْ.

٢- أنَّ عَلَى اليَهُود نَفَقَتُهُمْ، وَعَلَى المسْلميْنَ نَفَقَتُهُمْ.

٣- أنَّ بَيْنَهُمْ النُّصْحُ و النَّصيْحَةُ وَالبرُّ دُوْنَ الإثْم.

٤- وَإنَّهُ لَمْ يَأثَمْ امرؤٌ بحَليْفه.

٥- وَإنَّ النَّصْرَ للمَظْلُومْ.

وَبإبْرَام هَذه المعَاهَدَة صَارَتْ المدينَةُ وَضَوَاحيْهَا دَوْلَةً تَعيْشُ عَلَى الحُبِّ وَالوفَاق وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ رَيصاً عَلَى تَنْفيذ مَا جَاءَ فى هَذه المعَاهَدَة وَلَكنَّ اليَهُودَ الذيْنَ عُرفُوا بالغَدْر وَالخيَانَة كَانَ لَهُمْ رَأىٌ آخَرْ.

وَرَاحَ اليَهُودُ يُمارِسُونَ عَادَاتِهِمْ فِى طَرِيقِ الدَّسِّ وَالمؤامَرَةِ وَإِثَارَةِ القَلَقِ والاضْطِرَابِ فِى صُفُوفِ المُسْلِمِينَ وَفِى ذَاتِ مَرَّةٍ جَلَسَ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ وَكَانَ أَحَدُ كِبَارِ اليَهُودِ شَدِيدُ الحَسَدِ وَالكُرْهِ لِلمُسْلِمِينَ مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ مِنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ.

وَكَانَ أَصْحَابُ الرَّسُولِ يَتَحَدَّثُونَ فِى حُبٍّ وَمَوَدَّةٍ فَغَاظَهُ مَا رَأَى مِنْ أُلْفَتِهِمْ بَعْدَ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ العَدَاوَةِ أَيَّامَ الجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ الإِسْلامِ فَرَاحَ يُفَكِّرُ فِى مُصِيبَةٍ لِلمُسْلِمِينَ.

فَأَشَارَ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ إِلَى شَابٍ يَهُودِى يُلْقِى الأَشْعَارَ وَقَالَ لَهُ هَامِساً: اجْلِسْ بَيْنَهُمْ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الجَاهِلِيَّةِ وَأَنْشِدْهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا تَقَاوَلُوا فِيهِ مِنَ الأَشْعَارِ أَيَّامَ عَدَاوَتِهِمْ وَقِتَالِهِمْ بَعْضَهُمْ بَعْضاً.

فَلَمَّا فَعَلَ اليَهُودِىُّ تَكَلَّمَ المجتمعُونَ وَتَنَازَعوا وَتَفَاخَرُوا بِما فَعَلَتهُ كُلُّ قَبِيلَةٍ لِلأُخْرَى حَتَّى نَهَضَ رَجُلانِ وَكَادَا يَقْتَتِلانِ وَقَالَ البَعْضُ لِلبَعْضِ الآخَرِ إِنْ شِئْتُمْ أَنْ نُعِيدَ القَدِيمَ بَيْنَنَا فَلا بَأْسَ وَلْيَكُنْ مِيعَادُنَا الغَدَ عِنْدَ الظَّهِيرَةِ.

وَفِى اليَوْمِ التَّالِى خَرَجُوا وَمَعَهُمْ سِلاحُهُمْ وَكَادَتْ تَنْشُبُ الحَرْبُ فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ إِلَيْهِمْ وَمَعَهُ أَصْحَابُهُ قَائِلاً: يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ أَعُدْتُمْ لِلجَاهِلِيَّةِ بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمُ اللهُ لِلإِسْلامِ وَأَكْرَمَكُمْ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟

فَخَجِلَ القَوْمُ وَأَدْرَكُوا أَنَّها نَزْعَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَمُؤَامَرَةٌ مِنْ عَدُوِّهِمْ فَعَانَقَ الرِّجَالُ بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَانْصَرَفُوا سَامِعِيْنَ مُطِيْعِيْنَ، وَلَمْ يُعْجِبْ ذَلِكَ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ.

فَرَاحَ اليَهُودُ يَتَآمَرُونَ عَلَى المُسْلِمِينَ فَكَانُوا يَبُثُّونَ الدَّعَايَاتِ الكَاذِبَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ نَهَاراً ثُمَّ يَكْفُرُ مَسَاءً لِيَزْرَعُوا بُذُورَ الشَّكِّ فِي قُلُوبِ الضُّعَفَاءِ.

وَمِنَ المَعْرُوفِ أَنَّ اليَهُودَ يُحِبُّونَ جَمْعَ المَالِ وَالعَمَلَ مِنْ أَجْلِهِ فَكَانُوا يُضَيِّقُونَ سُبُلَ المَعِيشَةِ عَلَى الفُقَرَاءِ وَالمُحْتَاجِيْنَ وَيُطَالِبُونَهُمْ بِمَا عَلَيْهِمْ مِنْ مَالٍ صَبَاحَ مَسَاءْ.

فَلَمَّا نَصَرَ اللهُ المُسْلِمِينَ فِي مَعْرَكَةِ بَدْرٍ رَأَى اليَهُودُ أَنَّ المُسْلِمِيْنَ صَارَتْ لَهُمْ عِزَّةٌ وَهَيْبَةٌ فِي قُلُوبِ قَبَائِلِ العَرَبْ فَرَاحُوا يُظْهِرُونَ غَيْظَهُمْ وَحِقْدَهُمْ وَشَرَّهُمْ وَعَدَاوَتَهُمْ.

فَجَمَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اليهود فِي سُوْقِ بَنِي قَيْنُقَاعٍ وَقَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيْبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ كُفَّارَ قُرَيْشٍ فِي بَدْرٍ.

فَقَالَ كِبَارُ اليَهُود: يَا مُحَمَّدْ لا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنْ قَتَلْتَ بَعْضَ أَفْرَادِ قُرَيْشٍ لأَنَّهُمْ لا يَعْرِفُونَ القِتَالَ وَلَكِنْ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ مَنْ نَحْنُ وَكَيْفَ يَكُونُ القِتَالُ فَلَنْ تَجِدَ أَمْهَرَ مِنَّا.

ولكنَّ النبيَّ ﷺ تذرَّعَ بالصَّبْرِ واللِّين ودَعَاهُمْ إلى الهُدَى والبُعْدِ عَنْ الغُرُور فقَالَ كَعْبُ بْنُ الأشْرَف أحدُ كبَارُ اليهُود: يَا مُحَمَّدْ فَلْيَمْضِ كُلٌّ منَّا فِي سَبِيْله لنَرَى لمَنْ تَكُوْنُ الغَلَبَةُ فِي النِّهَايَة.

وكَانَ أعْظَمُهُمْ حقْداً وشَراً يَهُودُ بَنِي قَيْنُقَاع الَّذِيْنَ يَعْمَلُونَ فِي صنَاعَة الحدَادَة والمعَادن التي سَاعَدَتْ فِي امْتلاك كُلٍّ منْهُمْ آلات الحُرُوبِ وكَانَ عَدَدُ مُقَاتليْهِمْ أكْثَرَ منْ سُبْعُمَائَة غَيْرَ طَوَائفَ اليَهُود الأخْرَى وكَانُوا منْ أقْوَى اليَهُود.

فَلَمَّا زَادَ إيْذَاؤُهُمْ للمُسْلمِيْنَ وتَحَرُّشهمْ بهمْ وكَثْرَة سُخْريَّتهمْ وتَعَرُّضهمْ لنسَاء المسْلمِيْنَ.. ظَانِّيْنَ أنَّهُمْ أقْدَرَ وأقْوَى عَلَى المسْلمِيْنَ.

جَمَعَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ فَوَعَظَهُمْ ودَعَاهُمْ إلَى الرُّشْد وحَذَّرَهُمْ منَ الاسْتمْرَار فِي الغَطْرَسَة والغُرُور وكَظَمَ النَّبيُّ غَيْظَهُ وصَبَرَ.

وقَدْ بَدَأتْ أحْدَاثُ الغَزْوَة بمَا حَدَثَ لتلْكَ المرْأةُ، زَوْجُ أحَد المسْلمِيْنَ الأنْصَارُ الَّتي حَضَرَتْ إلَى سُوق المدِيْنَة فَبَاعَتْ مَا مَعَهَا ومَا أحْضَرَتْ منَ البَادية وقَصَدَتْ أحَدَ الصَّاغَة اليَهُود لشراء حُلىً لَهَا، وكَانَتْ المرْأةُ مُحَجَّبَةً تُخْفِي وَجْهَهَا فَأرَادَ الصَّائغُ اليَهُودِيُّ ومَنْ مَعَهُ أنْ يكْشفُوا عَنْ وَجْهِهَا.

فَأبَتْ المرْأةُ فَأرَادُوا أنْ يَفْعَلُوْا ذَلكَ عُنْوَةً فَصَاحَتْ مُسْتَغيْثَةً فَأسْرَعَ رَجُلٌ منَ المسْلمِيْنَ إلى الصَّائغْ فَضَرَبَهُ حَتَّى الموْت.

فَأسْرَعَتْ قُوَّةٌ منَ اليَهُوْد خَلْفَ الرَّجُل المسْلم فَقَتَلُوهُ فَأسْرَعَ أهْلُ الرَّجُل يَسْتَنْجدُونَ بالمسْلمينَ فَأسْرَعَ بَعْضُ المسْلمينَ يَتَقَاتَلُونَ مَعَ بَعْضِ اليَهُود ووَقَعَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ.

وَهُنَا نَفَدَ صَبْرُ النَّبيِّ ﷺ فَأرْسَلَ لوَاءَ المسْلمينَ بقيَادَة حَمْزَةَ بْنُ عَبْد المطَّلب إلَى يَهُود بَنى قَيْنُقَاعٍ لتَأديبهمْ فَلَمَّا رَأوْا ذَلكَ اليَهُودَ تَحَصَّنُوا فى حُصُونهمْ.

فَحَاصَرَهُمْ المسْلمُونَ أشَدَّ حصَار وكَانَ ذَلكَ فى النِّصْف الأوَّل منْ شَوَّال سَنَةَ (٢ هجْريَّة) ودَامَ حصَارُ المسْلمينَ لليَهُوْد خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً فَقَذَفَ اللهُ فى قُلُوب اليَهُود الرُّعْبَ والهَلَعْ.

خَذَلَ اللهُ اليَهُودَ وشَعَرُوا بهزيمتهمْ وَضَعْفهمْ وَطَالَبُوا بحُكْم رَسُول الله ﷺ فَسَلَّمُوا أنْفُسَهُمْ جَميعًا بنسَائهمْ وَذُرِّيَّتهمْ وأمْوَالهمْ إلى جَيْش المسْلمينَ فَقُيِّدُوا بالأغْلال.

فَأسْرَعَ ابْنُ سَلُول المنَافق اليَهُودىُّ وكَانَ قَدْ أسْلَمَ مُنْذُ أيَّام فَألَحَّ علَى رَسُول الله ﷺ أنْ يُصْدرُ عَنْهُمْ عَفْواً قَائلاً: يَا رَسُولَ الله أصَدَّقْتَ أنْ أهْلَ عَشيْرَتى اليَهُود مُقَاتلُونَ؟

إنَّهُمْ قَوْمٌ ضُعَفَاءُ يَطْمَعُونَ فى عَفْوكَ وَسعَة صَدْرك وَهَا هى ذىْ الفُرْصَةُ ليُدْركُوا أنَّ الإسْلامَ ديْنُ الحَقَّ والرَّحْمَة فَاعْفُ عَنْهُمْ وَرَاحَ ابْنُ سَلُوْل يُلحُّ مَرَّات ومَرَّات وفىْ كُلِّ مَرَّة كَانَ النَّبىُّ يُعْرضُ عَنْهُ.

ولَكنَّ ابْنَ سَلُوْل المنَافقُ مَضَى عَلَى إصْرَاره وَرَاحَ يُلحُّ قَائلاً: يَا نَبىَّ الله لَنْ أَتْرُكُكَ حَتَّى تُحْسنَ إلى عَشيْرَتى إنَّكَ فى غَزْوَة وَاحدَة تأسرُ أكْثَرَ منْ سَبْعمَائَة منَ الرِّجَال مَنْ حَاملى السَّهَام وَالدُّرُوع غَيْرَ النِّسَاء وَالأطْفَال وَأَخْشَى أَنْ تَقْتُلَهُمْ جَميْعاً.

فَأمَرَ رَسُولُ الله ﷺ جَيْشَ المسْلمينَ أنْ يَتْرُكُوا جَميْعَ اليَهُود بشَرْط أنْ يَتْركُوا المدينَةَ وَلا يُجَاورُوهُ بهَا وَلا يَمْكُثَ يَهُودىٌّ منْهُمْ فَخَرَجَ اليَهُودُ جَميْعُهُمْ بَعيْدًا وَتَفَرَّقُوا فى نَوَاحى الشَّامْ.

فَهَلَكَ أكْثَرُهُمْ وَقَدْ اسْتَوْلَى المسْلمُونَ عَلَى أمْوَالهمْ وَسلاحهمْ وَغَنَائمهمْ وَنَصرَهُمْ اللهُ عَلَى قَوْمٍ كَافرينَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ ﴾

[الحشر: ٣].

صَدَقَ اللهُ العَظيْمُ

***

غـــزوة أحـــد

لَمْ يَهْدأ كُفَّارُ قُرَيْش بَعْدَ مَا أصَابَهُمْ منْ هَزيمَة مُنْكَرَة عَلَى أيْدى المسْلمينَ فى مَعْركَة بَدْر وَرَاحُوا يُعدُّونَ أنفُسَهُمْ للثَّأر والانْتقَام وَمَنَعُوا البُكَاءَ عَلَى قَتْلاهُمْ منْ مُقَاتليهمْ وَأشْرَافهمْ حَتَى يَتمَّ الانْتقَامُ.

أخَذَ الكُفَّارُ ويَعدُّونَ العُدَّةَ لَشَنِّ الحَرْب عَلَى المسْلمينَ لتَشْفى غَيْظَهُمْ وكَانَ منْ زُعَمَائهمْ عكْرمَةُ بنُ أبى جَهْل الَّذى قُتلَ أبُوهُ فى مَعْركَة بَدْر وَصَفْوَانَ بنْ أميَّة وَأبُو سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَعَبْدَ الله بْنُ أبى رَبيْعَةَ أكْثَرُ زُعَمَاء قُرَيْشٍ تَحَمُّساً لخَوْض المعْركَة

وَرَاحُوا يَطُوفُونَ فى مكَّةَ قَائلينَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْش إنَّ مُحمَّداً قَدْ وَتَركُمْ وَقَتَلَ خيَاركُم فَمَنْ لَدَيْه مَالٌ أعينُونَا به عَلَى حَرْبه لَعَلَّنا نَثْأرُ منْهُ فَأجَابَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ وَجَمَعُوا ألفَ بَعيْرٍ وَخَمْسَيْن ألفَ دينَار.

كَما أرْسَلَ الكُفَّارُ إلى القَبَائل العَرَبيَة يَطْلبُونَ منْهُمْ التَّطَوُّعَ فى القتَال مَعَهُمْ فَاسْتَجابَتْ لَهُمْ جُمُوعٌ منَ القَبَائلْ وَاسْتَطَاعَتْ قُرَيْشٌ أنْ تَجْمَعَ أكْثَرَ منْ ثَلاثة آلاف رَجُلْ وَجَعَلُوا أبا سُفْيَانَ قَائدًا عَلَيْهمْ.

وَرَأى أبُو سُفْيَانَ أنْ يَسْتَصْحبُوا مَعَهُمْ أثْنَاءَ المعْركَة بَعْضَ نسَاء قُرَيْش حَتَّى يَسْتَميْتَ رجَالُهُمْ فى القتَال ضدَّ المسْلمينَ كَما تَركَ قَيَادَةَ الفُرْسَان إلى خَالدَ بْنُ الوَليْد يُعَاونُهُ عكْرمَةُ بْنُ أبى جَهْلْ.

كَانَ العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المطَّلب يَرْقُبُ حَرَكَاتَ قُرَيْش فَلَمَّا تَحَرَّكَ جَيْشُ الكُفَّار بَعَثَ العَبَّاسُ رَسُولاً يَحملُ رسَالةً إلى النَّبىِّ ﷺ فَأَسْرَعَ الرَّجُلُ وَجَدَّ فى الطَّريق حَتَّى أَنَّهُ قَطَعَ المسَافَةَ منْ مكَّة إلى المدينَةَ التَّى تَبْلُغُ مَسَافَتَها أَكْثَرُ منْ خُمْسمائةُ كيْلو متْر فى ثَلاثَة أيَّام فَقَطْ.

فَلمَّا قَرَأَ النَّبىُّ الرِّسَالةَ استَشَارَ أصْحَابَهُ فى البَقَاء بالمدينَة أوْ فى الخُروج إليْهمْ وَكَانَ منْ رَأى النَّبىِّ أنْ يَتَحَصَّنَ بالمدينَة فإن هَاجَمَهُمْ الكُفَّارُ قَاتَلَهُم الرِّجَالُ وَجْهًا لوجْه وَرَمَاهُمْ النِّسَاءُ والصِّبْيَةُ بالحجَارَة منْ فَوْقهمْ.

ولَكنَّ الرِّجَالَ الَّذيْنَ لَمْ يَشْهَدُوا غَزْوَةَ بَدْر خَاصَّةً الشَّبَابُ منْهُمْ تَحَمَّسُوا للخُروج وَقتَالُ المشْركيْنَ وَكَذَلكَ أيَّدَهُمْ رَجَالٌ اشْتَرَكُوا بغَزوة بَدْر كَىْ لا يُرْمُوْا بالجُبْن وَكَانَ فى مُقَدِّمَة هؤُلاء المتَحَمِّسيْنَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المطَّلبْ عَمُّ الرسول ﷺ.

وَأَمَامَ هَذه الرَّغْبَة اسْتَجَابَ لهم النَّبىُّ الكَريمُ ثُمَّ صَلَّى النَّبىُّ ﷺ بالنَّاس يَوْمَ الجُمُعَة فَوعظهُمْ وأمَرَهُمْ بالجدِّ والاجْتهَاد وأمرَهُمْ بالاسْتعْدَاد لعَدُوِّهمْ فَفَرِحَ المسْلمُونَ وَأسْرَعُوا يَعُدُّونْ أنْفُسَهُمْ للقتَال.

تَألَّفَ جَيْشُ المسْلميْنَ منْ ألف مُقَاتلْ وَتَحَرَّكَ الجَيْشُ نحو الشمال لملاقاة جَيْش المشْركينَ فَلَمَّا اقْتَربُوا منَ العَدُوِّ تَمرَّدَ عَبْدُ الله بْنُ سَلول المنَافقُ وَانْسَحَبَ وَمَعَهُ ثَلاثُمائة مُقَاتلْ ممَّنْ هُمْ عَلى شَاكلَته قَائلاً: مَا نَدْرى علامَ نَقْتُلُ أنْفُسَنَا ؟

أرَادَ هَذَا المنَافقُ بفَعْلَته هَذه أنْ يُحْدثَ البَلْبَلَةَ والاضْطرَابَ فى جَيْش المسْلمينَ حَتَّى يَنْفَضَّ الجَيْشُ عَنْ النَّبىِّ وتَنهَارَ مَعْنَويَّات مَنْ يَبْقَى وكَادَ المنَافقُ يَنْجَحُ فى تَحْقيْق بَعْض مَا كَانَ يَهْدفُ إليْه .

فَقَد هَمَّتْ طَائفتان مـمَّنْ كَانُوا قَريبى العَهْد بالإسْلام وَهُمَا بَنُو حَارثة من الأوس وَبَنُو سَلَمَة منَ الخزرج بالرُّجُوع والانسحاب ولَكنَّ الله تَوَلاهُمَا فثبتا وبَقيَا مَعَ جَيْشَ المسْلمين الذى يتألف من سَبْعُمَائة رَجُلْ بَعْدَ انسحَاب عَبْد الله المنَافق وَمَنْ مَعَهُ .

سَارَ المسْلمونَ حَتَّى نَزَلُوا أحَدَ أطْرَاف جَبَل أحُدْ جَاعلينَ ظُهورَهُمْ إلى الجَبَل وَهُنَاكَ عَبَّأ رسول الله ﷺ جَيْشَهُ وَهَيَّأهُم صُفُوفًا لَلقتال وَاخْتَار منْهُمْ خَمْسين مُقَاتلاً وَأمَرَهُمْ بالتمرْكُز فَوْقَ الجَبَل .

وَحَدَّدَ النَّبى مُهمَّتَهُمْ قَائلاً : ادْفَعُوا الخَيْل عَنَّا بالنبال حَتَّى لا يَأتُونا من خَلْفنَا وَسَواءَ هُزمْنَا أو انْتَصرْنَا فَاثبتُوا مكَانكُم فَوْقَ الجَبَل ولا يَهْبط منْهُ أحَدٌ ثم كَرَّرَ النبىُّ : إنْ رَأيْتُمُونا نُقْتَل فلا تَنْصُرونا وَإذَا رَأيْتُمُونَا قَد غَنمنا فلا تُشَاركُونَا .

وَكَانَتْ خطَّةُ النَّبى خطَّةً حكيمةً ودَقيقة كَما جَعَلَ قُوَّاته فى أفْضَل موْضع لميدان المعْركَة ونَهَاهُمْ عَن الأخْذ فى القتال حَتَّى يأمُرهم وَرَاحَ النبى يُحَرِّضَهُمْ على القتال والمصَابَرة عنْد اللِّقَاءْ .

ولَبَعْث التَّنَافس القَوىِّ فى إظْهَار البُطُولَة أخَذَ رَسُولُ الله سَيْفاً بيَده

فَقَال لأصْحَابه : مَن يأخذُ هذا السيف بحقه؟ فقام إليه رجالٌ ليأخذُوهُ منْهُمْ عَلىٌّ بنُ أبى طَالب وَالزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّام وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّاب ثُمَّ قَامَ إليْه أبُوْ دجَانَةَ قَائلاً : وَمَا حَقُّهُ يَا رَسُولَ الله؟

قَالَ النَّبىُّ : أنْ تَضْرِبَ به وُجُوهَ العَدُوِّ حَتَّى يَنْحَنى قَالَ أبُو دجانة : أنا آخُذُهُ بحقه يا رَسُولَ اللَّه فأعطاهُ إياهُ وَكَانَ أبُو دجَانَةَ رَجُلاً شُجَاعاً يَخْتَالُ عِنْدَ الحَرْب وَكَانَتْ لَهُ عصَابَةٌ حَمْرَاءْ.

فَإذا اعْتصَبَ بها عَلمَ النَّاسُ أنهُ سَيُقَاتلُ حَتَّى الموْتَ فَلَمَّا أخَذَ السَّيفَ عَصَّبَ رَأسَهُ بتلكَ العصَابة وَجَعَلَ يَتَبَخْتَرُ بَيْنَ الصَّفَّيْن وَحينئذ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «**إنَّها لمشْيَة يبْغَضُها اللهُ إلا فِى مثْلِ هَذَا الموْطِنْ**».

كَانَ المشْركُونَ قَدْ عَبَّأوا جَيْشَهُمْ فى صُفُوف وَاقْتَربُوا منْ جَيْش المسْلمينَ وَتَقَاربَ الجَمْعَان وَبَدَأت مَرَاحلُ القتَال وَكَانَ أوَّلُ وَقُود المعْرَكَة حَاملُ لوَاء المشْركينَ أبُو سَعْد بْنُ أبى طَلْحَةَ وَكَانَ منْ أشْجَعَ فرْسَان قُرَيْش خَرَجَ وَهُو رَاكبٌ عَلَى جَمَلٍ يَدْعُو إلى المبَارَزَة.

فَتَقَدَّمَ إليه الزُّبَيْرُ وَلَمْ يُمهلْهُ بَلْ وثب إليه وَثْبَةَ الأسَد حَتَّى صَارَ مَعَهُ عَلى جَمَله وألقَاهُ أرْضَاً ثُمَّ ذَبَحَهُ بسَيْفه فَكَبَّرَ المسْلمُونَ: اللهُ أكْبَرْ اللهُ أكْبَرْ ثُمَّ انْدلَعَتْ نيرانُ المعْرَكَة واشْتَدَّ القتَالُ بَيْنَ الفَريقين فى كُلِّ مكان بالميْدَان.

وَبَرزَ فى القتَال أبُو دجَانَةَ فَكَانَ لا يَلْقَى أحَداً إلا قَتَلَهُ كما بَرَزَ فى القتَال حَمْزَةَ عَمِّ النَّبىِّ وَسَعْدُ بْنُ أبى وَقَّاص وَعَاصمُ بْنُ ثَابتْ وَغَيْرُهُمْ

فَانطلقَ المسْلمُون خلالَ جُنُود الشِّرْك انطلاقَ الشُّجْعَان يقاتُلونَهُمْ.

وَقَامَتْ نسْوةُ المشْركينَ بنَصيبهنَّ منَ المشَاركة فى المعْركة تقُودُهنَّ هنْدُ بنْتُ عُتْبَة زَوْجَةُ أَبى سُفْيَانَ فكُنَّ يَضْربْنَ بالدُّفُوف يُحَرِّضْنَ على القتَال قَائلينَ:

وَيْهًا بَنى عَبْدِ الدَّار .·. وَيْهًا حُمَاةَ الأدْبَار

ضَـرْبـاً بِكُلِّ بَتَّارِ

إنْ تَقْـبَلُوا نُعَانِقْ .·. وَنَـفْرِشْ النَّمَارِقْ

أوْ تُعْرِضُوا نُفَارِقْ .·. فِـرَاقَ غَيْـرَ وَامِقْ

ولَكنْ لَمْ يثْمرْ تَحْريضهنَّ نَفْعاً.

وَفى كُلِّ مَرَّة يَرْتَدُّونَ عَلى أعْقَابهمْ بسَبَب مَا يُصيبُهُمْ منَ النِّبال الَّتى يَرْمـيهمْ بهَـا المسْلمُونَ حَـاملىْ النَّبَـال منْ فَوْق الجَبَل وَمَا هِىَ إلا سَاعَةً حَتَّى شَعَرَ الكُفَّارَ بالخَورَ وَوَلَّوا الأدْبَارَ وَنسَاؤهُمْ يُولْولْنَ.

فَلَمَّا هَرَبَ المُشركون منْ مَيْدَان المعْركة تَبعهم المسْلمُونَ يُجمِّعَونَ الغَنَائمْ والأسْلابْ فَلمَّا رَأى الرُّمَاةُ حَاملى النِّبال الذين وَضَعَهُمْ رَسُولُ الله لحمَـاية ظُهُـور المسْلمينَ مَـا آلَتْ إلَيْـه الحَـالُ منْ النَّصْـر مَـالُوا إلى النُّزُوْل.

فَقَالَ لَهُمْ رَئيسُهُم عَبْد الله بْنُ جُبَيْر إنَّ ذَلكَ مُخَالفةً لأمْر النَّبىِّ فَعَصَوْهُ وَنَزَلَ أكْثَرهُمْ وَبَقَى هُو مَعَ قَليل منْهُم فَلَمَّا رَأى ذَلكَ خَالدُ بْنُ

الوَلِيْد قَائدُ فُرْسَان المشْركينَ زَوَالَ هَذه العَقَبَة أسْرَعَ إلَى مُهَاجَمَة مَنْ بَقَىْ فَوْقَ الجَبَلْ.

فَقَتَلَهُمْ جَميعَاً وَأحَاطَ المسْلمينَ منْ وَرَائهم، وَصَاحَ فُرْسَانُ المشْركينَ صَيْحَةً عَرَفَ المُشركونَ المنْهَزمُونَ بالتَّطور الجَديد فَعَادُوا يُقَاتلون المسْلمينَ فَدُهشَ المسْلمُونَ وَتَركُوا مَا بأيْدِيهمْ منَ الغَنائم وأسْرَعُوا للْقتَال.

ولَكنَّ المشْركينَ اسْتَطَاعُوا أنْ يُحيطُوا المسْلمينَ منْ الأمَام وَالخَلْف فَتَفَرَّقَ عَنْ الرَّسُول أصْحَابَهُ وَفَرَّ بَعْضُهُمْ إلى المدينة وَانْطَلَقَتْ طَائفَةٌ منْهُمْ إلى الجَبَل وَجَعَل رَسُولُ الله يَدْعُو النَّاسَ: « إلَيَّ يَا عباد الله إلَيَّ يا عباد الله » فَالتَفَتَ حَوْلَهُ نفرٌ من أنصاره منهم أبو طلحة الأنصارى وكَانَ مُنَاضلاً وَسَعْدُ بْنُ أبى وَقَّاص وَأبُو دجَانَةَ وَغَيْرُهُمْ.

فَصَعَدَ رَسُولُ الله وَمَنْ بَقىَ معه منَ المحَاربينَ إلى الجَبَل وَقَاتَلَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب وَجَماعَةٌ منَ المهاجرينَ الكُفَّارَ حَتَّى أهْبَطُوهُمْ منَ الجبل واحْتَمَى المسْلمونَ فَوْقَهُ فَلَمَّا رَأى المشْركُون صُعُوبة الوَصُولَ إلى قمَّة الجَبَل لمَا يُقَابلهُمْ منْ مُقَاومَة شَديْدَة جَمَعُوا جَيْشَهُمْ.

فَنَادَى أبو سُفْيانُ جَيْشَ المسْلمينَ منْ أسفل الجَبَل قَائلاً: سَوْفَ نَرْحَلُ ولَكنْ مَوْعدُكم بَدْر للعَام المقْبل ثُمَّ رَحَل وَمَعَهُ جَيْشُ المشْركينَ إلى مكَّةَ.

رَجَعَ المسْلمونَ إلى المدينة وَقَدْ هَدَّهُمْ الحزنُ عَلَى الهَزيمة بَعْدَ النَّصْر الذى أصابوه لذَلكَ نَزَلَ الوَحْىُ الإلهىُّ يُوَاسى المسْلمينَ وَيَرْفَعُ رُوْحَهُم المعنَوية وَيُخفِّفُ وَقْعَ الهَزيمة عَلَيْهِمْ فى قَوْله تَعَالَى :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ .

[آلَ عِمْرَانَ : ١٣٩].

صَدَق اللهُ العَظِيْمُ .

***

غزوة الخندق

جَلَسَ زُعَمَاءُ يَهُود خَيْبَرْ يَتَآمرونَ وَيَنْتَظرونَ مَا يَحلُّ بالمسْلمينَ نَتيْجَةَ المَناوَشَات الَّتى كَانَتْ قَائمَةً بَيْنَ الكفَّار وَالمسْلمينَ فَلَمَّا طَالَ بِهِمْ الانتظَارُ رَاحُوا يُعدُّونَ العُدَّةَ لتَجْهيْز ضَرْبَة للمسْلمينْ .

لَمْ يكُنْ اليَهُودُ يَجدونَ فى أنْفُسهمْ الشَّجَاعَةَ عَلى التَّعرُّض للمُسْلمينَ مُبَاشَرَةً فَقَدْ ذَاقُوا ألْوَاناً منَ الذِّلِّ نتيجةَ غَدْرهمْ وَخيَانَتهمْ وَمُؤَامَرَاتهمْ عَلَى المسْلمينَ فَخَرَجَ زُعَمَاؤهُمْ إلى قُرَيْش بمكَّةَ .

وَهُنَاكَ رَاحَ اليَهُودُ يُحرِّضُونَ زُعَمَاءَ قُرَيْش عَلَى غَزْو مكَّةَ وَتَعهَّد اليهُودُ بتَقْديم كَافَّة الأسْلحَة اللازمَة لكُفَّار قُرَيْش والقتَال مَعَهُمْ حَتْى النَّصْرُ عَلى المسْلمينَ فَوَافَقَ زُعَمَاءُ قُرَيْش وَقَدْ وَجَدُوا فى ذَلكَ فُرْصَةً للانْتقَام منَ المسْلمينْ .

خَرَجَ زُعَمَاءُ اليهُود وَمَعَهُمْ زُعَمَاءُ قُرَيْش فى وَفْد إلَى قَبَائل العَرَب الأخْرَىْ يَدْعُونَهُم إلى القتَال مَعَهُم فاسْتَجَابَ لَهُمْ مَنْ اسْتَجَابَ وَقَدْ نَجَحَتْ خطَّةُ اليَهُود فى مُؤَامَرَاتهمْ فى تَجْميْع أحْزَاب المشْركيْنَ ضدَّ الرَّسُول ﷺ وَالمسْلميْنَ .

فَلَمَّا عَلمَ رَسُولُ الله ﷺ بذَلكَ عَقَدَ مَجْلساً اسْتشَارياً لوَضْع خُطَّة

للدفاع وحمايه المدينه وبعد مناقشات جرت بين أهل الشورى والقادة رأوا أنْ يُحفرَ خَنْدَق

حَوْلَ المدينة لحمايتها فأمرَ النَّبيُّ ﷺ بتنفيذ ذلكَ فوْرًا.

قامَ المسْلمونَ بجدٍّ ونَشاط يَحْفرُونَ حَوْلَ المدينة خَنْدقاً وشَاركَهُم في ذلكَ النَّبيُّ ﷺ وكَانَ يَنْقلُ التُّرابَ عَلَى كَتفه وكَانَ الجَميعُ يُقَاسُونَ منْ شدّة الجوعِ والحرِّ فكَانُوا يَحْفُرُونَ طُوْلَ النَّهَار.

استَطَاعَتْ أحْزَابُ المشْركينَ منْ تكْوين جُيُوش لَهَا يَقُودُها زُعَماء قَبائلهم واتّجَهَتْ جَميعُها حَسَبَ الخُطَّة والميعَاد المتَّفَق عَلَيْه بَيْنَهُمْ نَحْوَ المدينَة في كامل سلاحها وعَتادها.

بَعْدَ أيام تَجَمَّعَ حَوْلَ المَدينة جَيْشٌ منَ المشْركينَ يَتَألف أكْثَر منْ أحَدَ عَشَرَ ألفَ مُقَاتل فَلَمَّا رأى المسْلمُون الأحْزَابَ قالوا: هَذَا مَا وَعَدَنا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدقَ اللهُ وَرَسَولُهُ وَمَازَادَهُم إلا إيماناً. . أمَّا المنَافقُونَ وَضُعَفَاءُ النفُوسُ فَقَدْ تَزَعْزَعَتْ قُلُوبُهُمْ لرؤية حَجْم جَيْش المشْركينَ.

أمَرَ النبى ﷺ بأنْ يَجْعَلُوا كبَارَ السِّنِّ وَالنِّسَاء وَالأطْفَال في قلب المدينة وَخَرجَ هُوَ وَمَعَهُ ثَلاثَةُ آلاف مُقَاتلٍ وَجَعَلَ ظُهُورَهُم إلى جبَلٍ وَالخَنْدَق بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جَيْش المشْركينَ.

فلما أرادَ المشْركُونَ مُهَاجَمَةَ المسْلمينَ وَاقْتحَام المدينَة وَجَدُوا خَنْدَقاً

عَرِيضاً وَعَمِيقاً يحولُ بَيْنَهُم وَبَيْنَ المدينَة فَدُهشُوا وَتَعَثّرُوا ولَمْ يَتَقَدَّمُوا فَلَجَأوا إلى فَرْضِ حِصارٍ عَلَى المسْلمينَ مَا لَمْ يكُنْ فِى حُسْبَانِهِمْ.

جَلَسَ زعماءُ المشْركينَ يَتَشاوَرونَ فى غَضبٍ وَحدَّةٍ فِىْ طَرِيقَةِ لاقْتِحَامِ المدينَة وَرَأوا أنْ يُقيمُوا جسْراً ليَعْبُرُوْا عليه فَلَمَّا شَرَعُوا فى ذلك رَشَقَهُمْ جَيْشُ المسْلمينَ بالنَّبْلِ فَأصَابوا مِنْهُمْ الكَثيرَ فَتراجَعَ الكُفَّارُ ولَمْ يَبْلُغوا مَا أرَادُوْا.

ضَاقَ الكُفَّار ونَفَدَ صَبْرُهُم فَقَالَ عكْرِمَةُ بْنُ أبى جَهْلٍ : ليَخْرُجْ مَعى بَعْضُ الرِّجَال لنَعْبُرَ الخَنْدَق منْ مكَان ضَيِّق فَإذا عَبَرنا قَاتَلْنَا وَأعْطَينا الفُرصة لغَيْرنا فى العُبُور فَخَرَجَ مَعَهُ ضِرَارُ بْنُ الخَطَّاب وَعَمْرو بْنُ عَبْدُ وُدّ وَغَيْرُهُمْ.

اقْتَحَمَتْ مَجْمُوعَةٌ من المشْركينَ مكَاناً ضَيِّقاً بالخَنْدَق وَأسْرَعُوا بخَيلهمْ فى الجَانب الآخَر فَلَمَّا رَأى ذَلكَ عَلىٌّ بْنُ أبى طَالب خَرَجَ إليْهمْ وَمَعَهُ بَعْضُ المسْلمينَ وَسَدَّ عَلَيْهِمْ الثَّغرةَ الَّتى مَرُّوا بهَا حَتَّى لا يَفرُّوا عَائدينَ إلى مُعَسْكَرِهِمْ.

ثُمَّ لاقَاهُمْ عَلىٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَمَنْ مَعَهُ فَقَاتَلَهُمْ أشَدَّ قتال وَقَتَلَ منهُمْ مَنْ قَتَلَ وَهَربَ بَعْضُهم. . وَقَدْ حَاوَلَ الكُفَار مرارًا اقْتحَام الخَنْدَق أوْ شَقَّ طَرِيق فيْه ولَكنَّ المسْلمينَ قَاتَلُوهُمْ وَرَشَقُوهُمْ بالنَّبْلِ وَرَدُّوهُمْ عَلَى الأعْقَاب.

وَظَلَّ المشْرِكُونَ عَلَى حِصَارِهِمْ وَمُحَاولاتِهِمْ أيَّاماً وَكَانَ الخَنْدَقُ حَائلاً بَيْنَ المشْرِكِيْنَ وَالمُسلِمِيْنَ فَلَمْ يَجْرِ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ دَامِيَة مَا عَدَا الرَّشْقُ بِالنَّبْلِ وَبَعْضِ المحَاوَلاتِ التِى قُتِلَ فِيْهَا المشْرِكُونْ.

وَبَيْنَمَا المشْرِكُونَ فِى حِصَارِهِمْ كَانَ المسْلِمونَ يَدْعُونَ اللهَ تَعَالَى « **اللَّهُمَّ اسْتُر عَوْرَاتِنا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا** »وَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الأحْزَاب فَقَالَ : « **اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ سَرِيعَ الحِسَابِ اهْزِمْ الأحْزَابَ اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلهُم** » سَمِعَ اللهُ دُعَاءَ رَسُولِه والمؤمنينَ فَصَنَعَ أمْرًا مِنْ عِنْدِهْ.

فَفِى إحْدَى اللَّيَالى المظْلِمَة أتَى رَجُلٌ مُسْرِعًا إلى المدِينَة وَرَاحَ يُنَادِى عَلى رَسُول الله ﷺ وَكَانَ الرَّجُل يُدَّعَى نُعَيْم بْنُ مَسْعُود مِنْ قَبِيلة غَطَفَان وَالَّتِى تُشَارِكُ فِى حِصَارِ الأحْزَابِ وَكَانَ الرَّجُلُ مَعْرُوفًا بِشِرْكِه وَكُرْهِه للمُسْلِمِينَ.

فَاقْتَرَبَ مِنْهُ بَعْضُ المسْلِمينَ فِى حَذَرٍ فَقَال لَهُمْ: يَا قَوْم إنى أرِيْدُ لِقَاءَ مُحَمَّد نَبِىِّ الله فَلَمَّا جَاءَ إلى رَسُول الله ﷺ قَالَ : يَا رَسُولَ الله إنِّى قَدْ أسْلَمْتُ وَإنَّ قَوْمِى لَمْ يَعْلَمُوا بِإسْلامِى فَأمُرْنِى رِبمَا شِئْتَ فَقَدْ أسْتَطِيعُ أنْ أفْعَلَ لَكَ وَلِلْمُؤمِنِينَ شَيْئاً يُعِينُكُمْ عَلَى هَذَا الحِصَارْ.

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «**إنَّما أنْتَ يَا نُعَيم رَجُلٌ وَاحِدٌ فَخَذِّل عَنَا القَوْمَ فَإنَّ الحَرْبَ خُدْعَة** » فَأسْرَعَ نُعَيْم بِالعَوْدَة إلى المشْرِكِينَ فَذَهَبَ إلى بَنِى

قُرَيْظة أحَدُ أحْزَابِ المشْرِكينَ وكَانَ مَعْرُوفًا لَدَيْهِمْ فَقَالَ لَهُمْ : يَا قَوْم إنَّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ قَدْ تَآمَرُوا عَلَيْكَم لَقَدْ أتَوْا لحَرْبِ مُحَمَّد وأصْحَابه فَإن وَجَدُوا فُرْصَةً انْتَهَزُوْهَا ولَحقُوا ببِلادهِمْ وَتَركُوكُمْ وَمُحمَّداً فَانْتقم منْكُمْ.

تَعَجَّبَ يَهُودُ قُرَيْظَة وَقَالُوا فى دَهْشَة : وَمَا العَملُ يَا نُعَيمْ ؟ قَالَ نُعَيْم : لا تُقَاتلُوا مَعَهُمْ حَتَّى يُعْطُوكُم رَهائن فَتَأمَنُوا خيَانَتَهُمْ قَالُوا : لَقَدْ أشَرتْ بالرَّأى الصَّحيْح يَا نُعَيْم . ثُمَّ مَضَى نُعَيم إلى مُعَسْكَر قُرَيْش وَقَالَ لَهُم : يَا قَوْم تَعْلَمُون وُدِّى وَحُبِّى لكُمْ. قَالُوا : نَحنُ نَعْرِفُكَ وَنَثقُ بكْ.

قَالَ : إنَّ اليَهُودَ قَدْ رَاسَلُوا مُحَمَّداً وأصْحَابَه وأعْرَبُوا عَنْ نَدَمهمْ وَطَلَبُوا الصُّلْح وَتَعْهَّدوا لمُحَمَّد أنْ يَأخْذُوا منْكُمْ رَهَائنَ يَدْفَعُونَها إليه وَهَذا حَالُ اليَهُود فَاحْتَرسُوا منْهُمْ فَلا تُعْطُوهُمْ رَهَائن وَلا تَأمَنُوا لَهُمْ فَهُمْ يَخْدَعُونكُمْ. فَقَالَ زُعَمَاءُ قُرَيْش : هَذَا رَأىٌ هَذَا صَحيْحٌ فَلْنكُنْ فى حرْص وَحَذَر منْهُمْ.

وَفى أحَد الأيَّام بَعَثَ زُعَمَاءُ قُريشْ إلَى اليَهُود ليُشَاركُوهُمْ فى غَارة عَلى المسْلمينَ فَأرْسَلَ إليهم اليَهُودُ قَائلينَ : لا نُقَاتلْ مَعكُمْ حَتَّى تَبْعَثُوا إلَيْنَا رَهَائنَ منْ عنْدكُمْ فَلَمَّا عَلمَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانَ بذَلكَ قَالُوا :

لَقَدْ صَدَقَ نُعَيْم فَدَبَّتْ الفُرْقَةُ بَيْنَ أَحْزَابِ المشْرِكِيْنَ وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَخْشَى غَدْرَ زَمِيْلِه.

وَهكَذَا صَدَقَ نُعَيْمٌ فِى إيمانه وَإِسْلامه وَنَجَحَ فِى بَثِّ الفُرْقَة بَيْنَ الأَحْزَاب إلا أَنَّ جَيْشَ المشْرِكِيْنَ ظَلَّ عَلَى حِصَارِه للمَدِيْنَة فَظَهَرَ بَعْضُ المنَافقِينَ بَيْنَ أَهْلِ المَدِيْنَة فَقَالَ بَعْضُهُمْ : كَانَ مُحَمَّدٌ يَعِدُنَا أَنَّ نَأكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَهَا نَحْنُ أَوْلاء لاَ يَأْمَنُ أَحَدُنَا عَلَى نَفْسه.

وَقَالَ آخَرُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا مكْشُوفَةٌ للعَدُوِّ فَقَدْ تَحَالَفَ يَهُودُ بَنِى قُرَيْظَةَ الذِيْنَ يُجَاوِرُونَنَا مَعَ الأَحْزَاب بَعْدَ أَنْ كَانَتْ عَلَى عَهْد مَعَ مُحَمَّد فَانْصَرَفُوا عَنَّا فَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ بَنِى قُرَيْظَةَ شَىءٌ يَمْنَعُهُمْ مِنْ ضَرْبِنَا مِنَ الخَلْف بَيْنَما أَمَامَنَا جَيْشٌ جَرَّارٌ كَثِيْرُ العَدَد وَالعَتَاد.

وَفِى هؤُلاء أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُ: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا**﴾ [الأحْزَابْ : ١٢ , ١٣].

وَفِى يَوْم نَهَضَ رَسُولُ الله ﷺ فَرِحاً وَهُوَ يَقُولُ: «**اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ المسْلِمِينَ بِفَتْحِ اللهِ وَنَصْرِهِ**» وَلَمْ يَمْضِ إلا قَلِيلٌ مِنَ الوَقْتِ حَتَّى أَرْسَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جُنْداً مِنَ الرِّيْحِ عَلَى

أحْزَابِ المشْرِكِيْنَ رَاحَتْ تُطِيْحُ بِخِيَامِهِمْ وَقُدُوْرِهِمْ وَخُيُوْلِهِمْ .

سَادَ الذُّعْرُ وَالخَوْفُ بَيْنَ صُفُوف المشْرِكِيْنَ فَكَانَتْ الرِّيحُ تُطِيْحُ بِكُلِّ مَا يُقَابِلُهَا مِنْ إِنْسَان وَحَيَوَان وَكَانَتْ الرِّيحَ بارِدَةً قَارِصَةً فَسَقَطَ الكَثِيْرُ مِنَ المشْرِكِيْنَ مَرْضَىً فَقَالَ بَعْضُ زُعَمَاء المشْرِكِيْنَ : هَذه المعْرَكَةُ لَيْسَتْ لَنَا إِنَّها فِي صَالِحِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِه فَلِمَ لا نَرْحَلُ قَبْلَ أَنْ يُصِيْبَنَا مَكْرُوْهْ .

أَسْرَعَ المشْرِكُونَ يَشُدُّوْنَ رِحَالَهُمْ وَيَحْمِلُونَ مَرْضَاهُمْ وَيَجْمَعُونَ عُدَّتَهُمْ المبَعْثَرة هُنَا وَهُنَاكَ بِفِعْلِ الرِّيْحِ الشَّدِيْدَة وَقَدْ فَقَدُوا كَثِيراً مِنَ الخَيْل والجِمَال التِي فَرَّتْ هَارِبَةً مَذْعُورَةً .

هَلَّلَ المسْلِمُونَ مُكَبِّرِيْنَ اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرْ حِيْنَ شَاهَدُوا جُيُوشَ المشْرِكِيْنَ تَرْحَلُ فَقَدْ رَدَّهُمْ اللهُ بِغَيْظِهِمْ وَقَدْ سَاءَ حَالُهُمْ فَصَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ وَأَعَزَّ جُنْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهْ .

وَعَادَ جَيْشُ المسْلِمِينَ إِلى المَدِيْنَة بَعْدَ أَنْ حَاصَرَهَا المشْرِكُونَ شَهْراً فَلَمْ يَنَالُوْا خَيْراً وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ حِيْنَ رَأى المشْرِكِيْنَ يَرْحَلُونَ :

« **الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَا ، نَحْنُ نَسِيْرُ إِلَيْهِمْ** »

صَدَقَ اللهُ وَصَدَقَ رَسُوْلُهْ .

غزوة بنى قريظة

بَعْدَ أنْ نَصرَ اللهُ المسْلمينَ فى غَزْوَة الأحزاب رَأى رَسُولُ الله ﷺ أنْ يُلَقِّنَ يهُودَ بَنى قُرَيْظَةَ دَرْساً لا يَنْسُونَهْ.

فَهمْ أصْحَابُ دَسٍّ ومُؤَامَرَة ويَخْتَارُونَ أنْوَاعًا منَ الحيَلْ لإيْقَاعِ الإيْذَاء بالمسْلمينَ كَما أنَّهُمْ اشْتَرَكُوا مَعَ المشْركينَ فى غَزْوَة الأحْزَابْ.

أمَرَ رَسُولُ الله مُؤَذِّناً فَأذَّنَ فى النَّاس قَائلاً: «**مَنْ كَانَ سَامعاً مُطيعاً فلا يُصَلِّيَنَّ العَصرَ إلا بِبَنِى قُرَيْظَةَ**» فَخَرجَ جَيْشُ المسْلمينَ بقيَادَة عَلىِّ بْن أبى طَالب فى طَريقهمْ إلى بَنى قُرَيْظَةْ.

فَلَمَّا اقْتَربُوا منْ حُصُون يَهُود بَنى قريظة فَرَضُوا عَلَيْهمْ حصَارًا قَويّاً فَظَنَّ اليَهُودُ أنَّهُمْ صَامدُونَ أمَامَ ثَلاثَة آلاف مُقَاتلْ يتَكَوَّنُ منْهُمْ جَيْشُ المسْلمينَ فَرَاحوا يَنْظمُونَ الشِّعْرَ القَبيحَ فى النَّبىِّ والمسْلمينَ مُطْمَئنِّينَ دَاخلَ حُصُونهمْ القَويَّة وكَانَ عَلَى رَأسهمْ الحُقَيْقُ سَلامُ بْنُ أبى الحَقيْق (أبُو رَافع) وَهُوَ منْ أكَابر مُجْرمى اليَهُودْ.

فَلَمَّا اشْتَدَّ الحصَارُ عَلَى اليَهُود اجْتَمَعُوا بزَعيْمهمْ كَعْب بْنُ أسَد وَسَألُوهُ: مَاذَا نَفْعَلُ يَا كَعْبُ؟ إن المسْلمينَ يُشَدِّدُونَ منْ حصَارهمْ قَالَ كَعْبٌ: هُنَاكَ ثَلاثَةُ اخْتيَارَات إمَّا أنْ تُسْلمُوا وتَدْخُلُوا فى دِيْن مُحَمَّدْ فَتَأمَنُوا عَلَى دمَائكُمْ وأمْوَالكُمْ وأبْنَائكُمْ ونسَائكُمْ.

ثُمَّ قَالَ كَعْبٌ: وَالله لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ أنَّهُ لَنَبىٌّ مُرْسَلٌ وإنَّهُ الذى

تَجدُونَهُ فى كتابكُمْ. وإمَّا أنْ تَقْتُلُوا أبْنَاءَكُمْ ونِسَاءَكُمْ بأيْدِيكُمْ وتَخْرُجُوا إلى المسْلِمينَ بالسُّيُوفِ تُقَاتِلُونَهُمْ جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ عَلَى مَرَّاتٍ.

قَالُوا: وَالثَّالِثَةْ؟ قَالَ: تَهْجُمُونَ عَلَى رَسُولِ الله وأصْحَابه وتُبَاغِتُوهُمْ يَوْمَ السَّبْتِ لأنَّ المسْلِمينَ يَعْلَمُونَ أنَّنا لا نُقَاتِلُ فى أيَّامِ السَّبْتِ لأنهُ يَوْمٌ مُقَدَّسٌ لَنَا فَقَالُوا جَمِيعًا: لا هَذه ولا هَذه ولا هَذه فَقَالَ كَعْبٌ مُنْزَعِجاً: افْعَلُوا مَا شِئْتُم فَإنَّ المَوْتَ يحِيْقُ بِكُمْ.

رَاحَ اليَهُودُ يُفكِّرونَ فى الاسْتِسْلامِ إلى جَيْشِ المسْلِمينَ ولَكنَّهُمْ أرَادُوا أنْ يَتَّصِلُوا ببَعْضِ حُلفَائِهِمْ منَ المسْلِمينَ لَعَلَّهُمْ يعرفون مَاذَا سَيَحلُّ بهِمْ إذَا فَعَلوا ذَلكَ. فَبَعَثُوا إلى رَسُولِ الله ﷺ ليُرْسِلَ إليْهِمْ رَجُلاً يُدْعَى أبَا لُبَابَةَ يَسْتَشِيرُونَهُ وكَانَ حَلِيفاً لَهُمْ.

فَلَمَّا ذَهَبَ إليْهِمْ أبُو لُبَابَةَ قَابَلَهُ اليَهُودُ فى حُزْنٍ وأجْهَشَ النِّسَاءُ والصِّبْيَانُ بالبُكَاءِ فى وَجْهِهِ وقَالُوا: مَا رَأيُهُمْ؟ أنُسْلِمُ إلى مُحَمَّدٍ وأصْحَابه؟

فَقَالَ لَهُمْ: نَعَمْ.

رَأى اليَهُودُ أنَّه لا فَائِدةَ منْ تَحَمُّلِ عَذَابِ الحِصَارِ رَغْمَ تَوَافُرِ المَوَادَ الغِذَائِيَّةِ والآبَارِ والحُصُونِ لَدَيْهِمْ.

ورَغْمَ أنَّ المسْلِمينَ كَانُوا يُقَاسُونَ البَرْدَ والجُوعَ الشَّدِيْدَ وهُمْ فى العَرَاءِ إلا أنْ قَبْضَتَهُمْ كَانَتْ قَوِيَّةً حَوْلَ يَهُودِ بَنى قُرَيْظَةَ فَقَذَفَ اللَّهُ فى

قلوب اليهود الرُّعب وأخذت معنوياتهم تنهار حتى بلغت النهاية.

تقدم علىُّ بن أبى طالب ومعه الزبير بن العوام نحو حصون اليهود وصاح علىٌّ: يا كتيبة الإيمان والله لأفتحن حصنهم. فخاف بنو قريظة وبادروا بالاستسلام فأمر رسول الله ﷺ باعتقال الرجال.

فوضعت القيود فى أيدى اليهود وأخذوا النساء والأطفال بمعزل عن الرجال وأمر النبى ﷺ سعد بن معاذ بأن يتولاهم ويحكم فيهم فوافق اليهود على حكم سعد فيهم كما وافق المسلمون.

قال سعد: إنى أحكم على بنى قريظة بقتل الرجال منهم وتسبى ذريتهم وتقسم أموالهم. فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات» ثم سأل الرسول عن سلام بن أبى الحقيق كبير اليهود والمجرم المطلوب للمسلمين فعلم أنه تسلل هاربا وقت الحصار.

فلما تم استئصال أفاعى الغدر والخيانة من اليهود قسم رسول الله ﷺ أموال بنى قريظة على الفرسان من المسلمين والمقاتلين وبعث بالسبايا إلى نجد وهناك تم بيع نساء اليهود تحت إشراف سعد بن زيد الأنصارى واشترى بالثمن خيلاً وسلاحًا للمسلمين.

وكان المسلمون قد اغتنموا من بنى قريظة أكثر من ألفى سيف ومئات الرماح والدروع التى كانت معدة لإبادة المسلمين وفى أثناء عودة سعد بن زيد من نجد علم أن سلام بن أبى الحقيق المجرم

اليَهُودِىّ الهَارِبُ مِنْ بَنِى قُرَيظَةَ يُقِيمُ فِى حِصْنِ يَهُودِ خَيْبَرْ .

فَلَمَّا وَصَلَ المدينَةَ أخْبَرَ رَسُولَ الله ﷺ بأمْرِ سَلام بْنِ الحُقَيْق فأسْتَأذَنَتْ الخَزْرَجُ رَسُولَ الله ﷺ فِى قَتْلِه فَأذِنَ لَهُمْ النَّبِىُّ وَنَهى عَنْ قَتْلِ النِّسَاء وَالصِّبْيَانْ .

خَرَجَ مِنَ الخَزْرَجِ خَمْسَةُ رجَال بقِيَادَةِ عَبْد الله بْنِ عُتَيْك فى طَرِيقِهِمْ إلى خَيْبَر فى مُهِمَّة صَعْبَة لقَتْلِ المُجْرِمِ اليَهُودِىِّ مِنْ بَيْنِ قَوْمِه وَعَشِيرَتِه يَهُود خَيْبَرْ فَلَمَّا اقْتَربُوا مِنَ الحِصْنِ كَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ مَالَتْ للغُرُوبْ .

تَوَقَّفَ عَبْدُ الله بْنَ عُتَيْك وَقَالَ لأصْحَابه : إنَّ بَوَّابَةَ الحِصْنِ عَلَى وَشَك أنْ تُغْلَقْ وَلَوْ دَخَلْنَا إليها سَيُلاحظُنَا حُرَّاسُ البَوَّابَة وَأنَا أرَى أنْ تَجْلسُوا هُنَا مكَانكُم فَإنِّىْ مُنْطَلقٌ إلى البَوَّابَة وَسَأتَحَايَلُ عَلَى حُرَّاسِهَا لَعَلِّى أدْخُلَ إلى الحِصْنْ .

فَلَمَّا اقْتَرَبَ عَبْدُ الله منَ البَوَّابَةَ وَقَدْ دَخَلَ النَّاسُ إليْهَا هَتَفَ به الحَارِسُ يَا رَجُلُ إنْ كُنْتَ تُرِيدُ أنْ تَدْخُلَ فَأسْرِعْ فَإنِّى أرِيدُ أنْ أغلق البَابَ هَيَّا . . . فَأسْرَعَ عَبْدُ الله إلَى دَاخِلِ الحِصْنِ بَيْنَما أغْلَقَ الحُرَّاسُ البَابَ وَعَلَّقوا مَفَاتِيحَهُ خَلْفَهُ .

وَفى اللَّيْلِ اقْتَرَبَ عَبْدُ الله مَنَ البَاب فى سُكُون وَهُدُوء وَأخَذَ مَفَاتِيحَ البَاب وَفَتَحَ بهَا الحِصْنَ حَتَّى تَسَلَّلَ إلَيْه أصْحَابُهُ وَرَاحُوا يَبْحَثُون فِى الظَّلامِ عَنْ سلاَّمِ بْنِ أبِىْ الحُقَيْق .

وآخيراً علموا أنَّه يسكُن فى مكان عال منَ الحصْن فلَمَّا ذهَبُوا إلَيْه وجَدُوا أنَّ لَدَيْه بعْضَ اليهُود الَّذينَ جلَسُوا يتآمَرُونَ علَى المسْلمينَ بيْنما أخْرجَ لَهُمْ سلاَّمُ ذهَباً وأمْوالاً لإتْمام المؤامَرَةْ.

فلَمَّا خرَجَ اليهُودُ منْ عنْده تسلَّل إلَيْه عبْدُ الله ومَنْ معَهُ وكانَ البيْتُ مُظْلماً فلَمْ يدْرُوا أيْنَ هُوَ، فقالَ عبْدُ الله مُنادِيًا : يا سلاَّمُ أيْنَ أنْتَ ؟ قالَ اليهُودىُّ : مَنْ هذَا؟ فأهْوَى عبْد الله بسَيْفه نحْوَ الصَّوْت فضَرَبَهُ فصَاحْ.

فخَرجَ عبْدُ الله ومَنْ معَهُ مُسْرعينَ إلى الخارج واخْتفُوا فى مكان مُظْلم بعْضَ الوقْت ثُمَّ عادَ عبْدُ الله مرَّةً أخْرَى إلى بيْت سلاَّم بْن أبىْ الحُقَيْق فلَمَّا دخَلَ إلَيْه قالَ : ما هذَا الصَّوْتُ يا سلاَّمْ؟

قالَ سلاَّم مُتألماً : لأمِّكَ الوَيْلُ إنَّ رجُلاً فى البَيْت ضَرَبَنى بالسَّيْف. فضَرَبَهُ عبْدُ الله مرَّةً أخْرَى وجَعَلَ السَّيْفُ يدْخُلُ منْ بطْنه ويَخْرُجُ منْ ظَهْره فسَقَطَ سلاَّمُ علَى الأرْض.

وخَرجَ عبْدُ الله مُسْرعاً وبيْنما هُوَ ينْزلُ تدَحْرجَ وسَقَطَ علَى الأرْض فانْكسَرَتْ ساقُهُ فعَصَبَها بعمَامَته وأسْرَعَ إلَيْه زُمَلاؤُهُ وتَحامَلَ عبْدُ الله علَيْهمْ وسَطَ ظَلام اللَّيْل الدَّامس.

وفى خلْسَة خرَجُوا جَميعًا مِنْ بوَّابَة الحصْن فقَالَ لَهُمْ عبْدُ الله : لنَخْتَبئْ هُنَا قُرْبَ الحصْن حَتَّى طُلُوعَ النَّهار لنتَأكَّدَ منْ مَوْت سلاَّم المجْرم اليهُودىِّ وهَلْ قتَلْتُهُ أمْ لا ؟

فَلَمَّا صَاحَ الدِّيْكُ صَاحَ مُنَادِىْ الحِصْنَ قَائِلاً: أَنْعِى أَبَا رَافِعٍ تَاجِرَ أَهْلِ الحِجَازِ لَقَدْ قَتَلَهُ مَجْهُولٌ وَكَانَ اليَهُودُ حِيْنَ عَلِمُوا بِمَقْتَلِه قَدْ أَوْقَدُوا النِّيرَانَ وَرَاحُوا يَبْحَثُونَ فِى كُلِّ مَكَانٍ دَاخِلَ الحِصْنِ حَتَّى يَئِسُوْا.

انْطَلَقَ الفِرْسَانُ الخَمْسَةَ بَعْدَ أَنْ أَنْ اطْمَئَنُّوا عَلَى نَجَاحِ مُهِمَّتِهِمْ إِلى المَدِيْنَةِ لِيُبَشِّرُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ بِمَقْتَلِ المُجْرِمِ اليَهُودِىّ الهَارِبُ رَأْسَ الفِتْنَةِ وَمُمُولِ المؤامَرَاتِ بِالمَالِ.

فَلَمَّا وَصَلُوا إِلى المَدِيْنَةِ قَالَ عَبْدُ اللهِ: الحَمْدُ لله فَقَدْ قَتَلَ اللهُ أَبَا رَافِعٍ فَلَمَّا عَلِمَ النَّبِىُّ بِكَسْرِ سَاقِ عَبْدِ اللهِ قَالَ لَهُ النَّبِىُّ: ابْسُطْ رِجْلَكَ يَا عَبْدَ اللهِ فَلَمَّا بَسَطَ رِجْلَهُ مَسَحَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهْ.

فَقَامَ عَبْدُ اللهِ مِنْ مَجْلِسِه وَكَأَنَّهُ لَمْ يَشْكُ مِنْ رِجْلِه أَبدًا وَكَانَ نَصْرًا عَزِيزًا مِنَ اللهِ عَلَى أَهْلِ الكُفْرِ وَالعُدْوَانِ بَنِىْ قُرَيْظَةَ وَقَدْ وَقَعَتْ هَذِه الغَزْوَةُ فِى ذِىْ القِعْدَةِ سَنَةَ خَمْسٍ لِلْهِجْرَةِ وَقَدْ دَامَ حِصَارُهَا خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً.

بنى المصطلق

جَلَسَ الْحَارِثُ بْن أبى ضرار رئيسُ بَنى الْمُصْطَلق مَعَ زعَماء قَوْمه الْمُشْرِكين يحثُّهُمْ علَى الإعدادَ لَقتَال الْمُسْلمينَ ، فَقَالَ لَهُ أحَدهَمْ : إنَّنَا لَنْ نَتمكَّن من الْقَضاءَ عَلَى مُحَمَّد وأصْحابَه وَحْدَنَا ، ولكنْ لابُدَّ أنْ تَتعاوَنَ مَعَنَا قَبَائل الْعَرَب الَّتى تُنَاصبُ مَحمَّداً الْعدَاءَ .

سَمعَ الْحَارثُ كَلاَمَ صَاحبه فَرَاحَ يَجْمَعُ الْعَرَبَ منْ هَنَا وَهُنَاكَ ، وَيُحَرّضُهُم عَلَىْ حرْبَ النَّبىِّ ﷺ وأصْحَابه ، فَاسْتَجَابَ لَهُ بَعْضُهُمْ ، وبَلَغَ ذَلكَ النَّبىَّ ﷺ .

أرَادَ النَّبىَ عَلَيْه الصَّلاة والسّلام أنْ يَتَحَقَّقَ منْ صحَّة الْخَبَر ، فأرْسَلَ إلى بنى الْمُصْطَلق وَاحداً منْ أصْحَابه يَعْرفُونَهُ ، ولَكنَّهُمْ لاَ يَعْلمُونَ أنَّه قَدْ أسْلَم ، فَاستَقْبله الْحَارثُ فَى الطَّريق وَعَرَفَ الصَّحَابىُّ نَوَايَا بنى الْمُصطَلق فمكَثَ ، فى مَعْسكَرهَمْ قَليلاً ، ثُمَّ اسْتأذنَ الْحارث فى الرَّحيل .

عادَ الصَّحَابىّ إلى رَسُول اللَّه ﷺ فى الْمَدينة ، وأخْبَرَهُ بأنّ الْحَارثَ قَادمٌ للقتَالَ ، وَهُوَ عَلَى مَسافَة يَوْمَيْن ، ولَمَّا تَحقَّقَ النَّبىُّ عليه الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ منْ صحَّةَ الْخَبَرَ دَعَا الْمُسْلمينَ إلى الْقتَال ، وَأسْرَعَ فى الْخُرُوج بهم منَ الْمَدينة وكَانَ خُرُوجهم فى شَهْر شَعْبانَ فى السَّنَة الْخَامسة من الْهجْرَة .

وفى الطريق بعث الحارث بن ضرار قائد المشركين جواسيسه ليأتوه بخبر جيش المسلمين ، فألقى المسلمون القبض على هؤلاء الجواسيس وقتلوهم ماعدا واحداً منهم، فر جريحاً وعاد إلى الحارث، فأخبره بما حدث.

علم الحارث بن أبى ضرار ومن معه باقتراب الرسول ﷺ وأصحابه فخافوا خوفاً شديداً، واشتعلت الفتنة بينهم فتفرقوا، وهرب منه ما كان قد تجمع حوله من العرب، ولما وجد نفسه وحيداً ليس معه إلاّ قومه فقط تراجع نحو دياره ليحتمى بها.

فقد كان بعض الأعراب القساة يعيشون فى الصحراء، يسلبون وينهبون ويعتدون على الشيوخ والنساء بين الحين والحين، كانوا مشركين، ومعادين للإسلام والمسلمين، ولأن هؤلاء الأعراب لا تجمعهم بلدة أو مدينة كان من الصعب أن يلحق بهم أحد، أو يتمكن من تأديبهم. وكانوا دائمى الهجوم على أطراف المدينة مما أصاب المسلمين فيها بكثير من الأذى.

أراد رسول الله ﷺ تأديب هؤلاء الأعراب، وكسر شوكتهم، فعين بعض أصحابه لمتابعة هؤلاء الأعراب ومراقبتهم ، إلى أن علم أن هناك اجتماعاً بين أعراب بنى ثعلبة وبنى محارب من غطفان، فأمر رسول الله ﷺ بإعداد المسلمين فوراً للقتال، وخرج بهم فى جيش عدده خمسمائة مقاتل تقريباً.

كَانَ الأعْرَابُ عَلَى مَسيرة يومَيْن تَقْريبًا من الْمَدينَة الْمُنوَرَّة، فَتَوَغَّل رَسُولُ اللَّه ﷺ فى بلادهم إلى أنْ وَصَل إلى مَكَان يقَالُ لَهُ «نَخلٌ» فَتوقّف رَسُول اللَّهَ ﷺ بجَيْشه ثُمَّ خرَجَ هُوَ وَبَعْضُ الْمُقَاتلين ليسْتكشفُوا مكَانَ الأعْدَاء، وكَانَت الشَّمْسُ قَاسيَةً والرِّمَالُ مُلتهبَة فأصيبَتْ أقْدامُ الرّسُولَ ﷺ وأصْحَابه بالأذى الشّديد حتَّى كَانوا يَلفُّون عَلَيْها قَطَعَ الخرق منْ شدَّة حَرَارة الرِّمَال، ولذلكَ سُمِّيَتْ غَزْوَة «ذَات الرقَاع».

وَالتَقَى رَسُولُ اللَّه ﷺ بجَمْع منْ غَطَفَان بَيْنَهُم زُعَمَاؤُهُم منَ الأعرَاب، فَقَاد جَيْشَهُ وحَاصرهم حصَارًا شَديدًا، ولَمَّا حَانَتْ صَلاَةُ الْعَصْر خَافَ الْمُسْلمُونَ أنْ يَغْدر بهمُ الأعْدَاء، فَصَلَّى الرَّسُولُ ﷺ بهم صلاة الخَوْف فألْقَى اللَّه الرُّعْبَ والخَوْفَ فى قُلُوب الأعْدَاء وَهَرَبُوا منَ الْمُسْلمينَ.

وكَانَ لهَذه الْغَزْوة أثَرُهَا الشّديدُ عَلَى الأعْدَاء، إذْ قَذَفَتَ الهزيمة فى قُلُوبهمُ الرُّعْبَ، وتَتَابَعَ بَعْدَهَا اسْتسْلاَمَ الْقَبَائلَ الّتى لَمْ تَجْرُؤ عَلَى أنْ تَرْفَعَ رأسَهَا أمَامَ جَيْش الْمُسْلمين، إلاَ أنّ قَبيلَةَ بَنى الْمُلَوحّ اسْتَمَرّتْ عَلَى شركْهَا وقَتَلَتَ عَدداً منَ الْمُسْلمين الْعَائدين إلى الْمَديْنة بتجَارتهم، ونَهَبُوا مَا كَانَ مَعَهم منْ أمْوَال وأمْتعَة.

وَعلمَ النَّبىُّ ﷺ بمَا فَعلَهُ بَنُو الْمُلَوّح فَأمَرَ غَالبَ بْنَ عَبْد اللّه اللّيثى أن يأخُذَ قُوَّةً منَ الْمُسْلمين وَيَذْهَبُ بهَا للثَّأر مَنْ بَنى الْمُلَوَّح، وَعَلَمتْ

تلْكَ الْقَبيلَةُ بقُدُوم غَالب إلَيْهَا فَاسْتَعَدَّتْ هى الأخْرى للْقتَال، غَيْرَ أنّ غَالبَ بْنَ عَبْد اللّه كَانَ يَسيرُ هُو وأصْحَابُهُ لَيْلاً، وَيَخْتَفُونَ نَهَاراً حتَّى اقْتَرَبُوا منْ بَنى الْملَوّح فى سَريّة تَامَّة وَفَاجئُوهُم بالْحصار منَ الأمَام والْخَلْف، وأصَابَوهمْ بأرتبَاك شَديد.

شَنَّ الْمُسْلمَونَ غَارَتَهمُ فى اللّيْل علَى بَنى الْمُلَوّح، فَقَتَلُوا الْكَثيرُ مَنْ رجَالهم، وسَادَ الْفَزَعُ والرُّعبُ فى مُعَسْكَرهم، وَسَاقَ الْمسْلمُون أمَامَهُم الأنْعَامَ من الغنائم، وأخَذُوا مَا وجَدُوُه منْ مَال، وكَانَ بَنُو الْمُلَوّح قَدُ طَلَبُوا الْمُسَاعَدةَ منْ بَعْض الْقَبَائل المجاورَة لَهُمْ، فَفُوجىء الْمُسْلمُونَ بجَيْش كَبير من الأعْدَاء وَمُعَاونيهم يُطَارِدُونَهُمْ منَ الخَلْف.

وعنْدَمَا اقْتَرَبَ جَيْشُ الأعداء منَ الْمُسْلمينَ أرَادَ اللّهُ ألاّ ينْهَزم نَبيُّه أوْ يُصَابَ بأذَىً هُوَ وَمَنْ مَعَهُ، فأنزل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَطراً شديداً، وَصَبَّ سَيْلاً عَظيماً عَلَى رُءُوس الأعْدَاء، فَسَقَطَ فُرْسَانُهُمَ علَى الأرْض الْمُوحلة، وَنَجَحَ الْمُسلمُونَ فى الْعَوْدَة سَالمينَ إلَى ديَارهم.

وَفى الْمَدينَة علَم رَسُولُ اللّه ﷺ أنَّ أسَيْر ابن رزام الْيَهُودىُّ الّذى أعْلَنَ الْوَلاءَ للْمُسْلمينَ بَعْدَ هَزيمة خَيْبَر، عَادَ للّتآمُر مرَّةً أخرى، وَبَدأ يَحُثُّ الذين عَاهَدُوا رسُولَ اللّهَ ﷺ علَى السَّلاَم، وَيُحَرِّضهُمُ علَى إيذَاء الْمَسْلمين، وَرَاح هَذَا الرَّجُل بمَا لَهُ منْ نُفُوذ بَيْنَ الْيَهُود يستَملهُم لُيسَاعَدوا بالْمَال وَالسَّلاح فى الإضْرَار بالْمسْلمينَ.

وَذَهَبَ أَسِيرُ الْيَهُودِيُّ إِلَى زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ وَطَلَبَ مِنْهُمُ الْمُسَاعَدَةَ فِي الإِجْهَازِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَلَكِنَّ زُعَمَاءَ قُرَيْشٍ لَمْ يَجْرُؤُا عَلَى إِعْلانِ ذَلِكَ، لأَنَّهُمْ لاَ يَزَالُونَ فِي صُلْحٍ مَعَ النَّبِيِّ بِمُقْتَضَى مُعَاهَدَةِ الْحُدَيْبِيَةِ، فَرَاحُوا يُسَاعِدُونَ أَسِيراً سِرّاً، وَظَنَّ أَسِيرٌ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ مَا لَمْ يَفْعَلْهُ غَيْرُهُ مِمَّنْ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُ وَأَقْوَى وَلَمْ يَسْتَوْعِبْ الْعِبْرَةَ مِنْ مُعَاهَدَةِ قُرَيْشٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ.

عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ فَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِالْخُرُوجِ إِلَى خَيْبَرَ، وَالإِتْيَانِ بِأَسِيرٍ هَذَا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَخَرَجَ لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فِي سَرِيَّةٍ مِنْ ثَلاَثِينَ رَجُلاً، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى خَيْبَرَ اسْتَقْبَلَهُمُ الْيَهُودُ أَحْسَنَ اسْتِقْبَالٍ وَكَانَ أَسِيرٌ هَذَا عَلَى رَأْسِهِمْ يُرَحِّبُ قَائِلاً: مَرْحَباً بِأَصْدِقَائِنَا أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ رَجُلِ الْخَيْرِ وَالسَّلاَمِ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ: كَيْفَ حَالُكَ يَا أَسِيرُ، إِنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُقْرِئُكَ السَّلاَمَ، وَيَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَأْتِيَ مَعَنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِلِقَائِهِ. فَقَالَ أَسِيرٌ فِي دَهْشَةٍ: مَاذَا هُنَاكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ؟ أَيُرِيدُنِي مُحَمَّدٌ فِي شَيْءٍ؟ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ لَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ يَا أَسِيرُ وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُرِيدُ أَنْ يُعَيِّنَكَ حَاكِماً عَلَى خَيْبَرَ.

ضَحِكَ أَسِيرٌ بِخُبْثٍ، وَطَلَبَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ أَنْ يُمْهِلَهُ لَحَظَاتٍ حَتَّى يَرْتَدِيَ ثِيَاباً تَلِيقُ بِلِقَاءِ نَبِيِّ اللَّهِ، وَأَسْرَعَ أَسِيرٌ إِلَى بَيْتِهِ، وَلأَنَّهُ مِثْلُ كُلِّ الْيَهُودِ الَّذِينَ مِنْ طِبَاعِهِمُ الْخِيَانَةُ وَالْغَدْرُ، فَقَدْ أَسْرَعَ يَطْلُبُ بَعْضَ

أعْوانَهُ، فَأتوا إليه مُسْرعيْن، فَأخْبَرَهُم أنّهُ ذَاهبٌ إلى مُحَمّدُ، وأنَّهُ يشُكُّ فى أنْ يكُون مُحَمّدُ قَدْ علمَ بتآمُرِه عَلَيْه فى الخَفَاء، وأنّهُ يَخْشَى الّذهَابَ إلَيه وَحْدهُ.

قَالَ لَهُ أعْوانُه: وَمَاذَا تَرَى يَا أسيْر إذَا كَانَ مُحَمّدُ قَدْ علمَ بتآمُرنَا؟ قَالَ أسير: أرَى أنَّ عَبْدَ اللّه بْن رَوَاحَةَ قَدْ أتَى وَمعَهُ ثلاثُون رَجُلاً، فَلمَ لاَ نَخْرُجُ مَعَهُم فى ثَلاثيْن مَثْلهم بسلاَحنَا، وفى الطَّريق نَغْدرُ بهم، ونَغْتَالُهُم، ونَعُودُ إلَى خَيْبَر، أوْ نَفرُّ إلَى أىِّ مكَان ننضَمّ فيه إلى أعْدَاء مُحَمّد حَتَّى يَنْتَهى أمْرُهُ.

رَأى عَبْدُ اللَّه أنَّ أسَيْراً خَرَجَ وَمَعَهُ ثَلاثُون رَجُلاً، وَبَدأ أسير يُبَرِّرُ وُجُودَهُم مَعَه فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللّه، إنّ أصْحَابى يُريدُونُ مُرَافَقَتى للقَاء نَبىَّ اللّه، فَهلْ تَسْمَحُ لَهُمْ بذلَك؟ قَالَ عَبْدُ اللّه: لاَ مَانعَ عنْدَى يَا أسَيرُ مَرْحَباً بكُم. ثُمَّ حَذَّرَ عَبْدُ اللَّه أصْحَابَهُ الثَّلاثين منْ أىِّ غَدْر، وَأمَر رِجَالَهُ أنْ يَتْبَعَ كُلٌ منْهُم يَهُودياً وَيَسيرُ خَلْفَهُ لاَ أمَامهُ.

فى الْوَقت نَفْسه كَانَ أسَيرُ وَرجَالُه يتَّفقُونَ عَلَى خُطَّة يَقْضُونَ بهَا عَلَى عَبْد اللَّه بْن رَوَاحَةَ وَأصْحَابَهُ، وَعَلَى بُعْد ستَّة أمْيَال منْ خيْبَر أهْوى أسير عَلَى عَبْد اللَّه وَحاولَ أنْ يَقْتُلهُ، وَضَرَبَهُ فى وَجْهه فَشَجَّهُ، ولَكن الْمُسْلمينَ تَنَبَّهُوا لغَدْر الْيَهُود فَاسْتلُوا سيُوفهُم وَدَارَتْ مَعْرَكَةً بَيْن عَبْد اللّه بْن رَوَاحه، وأصْحَابه وبَيْن اليَهُود، استَمرَّتْ وقْتاً لَيْسَ بالْقَصير.

أعدَّ أبُو بكْر سَرِيَّةً منْ شُجعَان الْمُقَاتلينَ وَخَرَجَ بهم منَ الْمَدينة فى الأيَّام الأولَى منَ شَهْر رَمضَانَ الْمُعظَّمَ، وبعدَ أيَّام اقْتَرَب الْمُقَاتلُونَ منْ وَادى الْقرى، وكَانَ الْوَقْتُ لَيْلاً، فَأمَرهُمْ أبُو بكر بالرَّاحَة حَتَّى الصَّبَاحِ، اسْتعْدَاداً للْقتَال.

وَفى الصَّبَاح أقَامَ أبُو بكْر الصَّلاَةَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ، فَأدُّوا صَلاَةَ الْفَجْر فى جَمَاعَة، وكَانَ مشْركُوا وَادى الْقُرى عَلَى مَرْأى الْعَيْن منْهم، فَأمَرهم أبُو بكْر بالْهُجُوم عَلَيْهم، وكَانَتْ مُفَاجَأةً لمُعَسْكر أعْدَاء الْإسْلاَم، إذ لمْ يَتنَبَّه حُرَّاسُهُم للأمْر، وَدَارَ قتَالٌ عَنيفٌ قُتلَ فيه الْمُسْلمين عَدَداً كَبيراً منَ الْمُشْركين.

وَأرَادَ بَعْضَ الْكُفَّار أنْ يَهْرُبُوا إلى الْجبَال فَقَذَفَهُمُ الْمُسْلمُونَ بالسِّهَام، فتوقفَ هَؤُلاَء الْهَاربُون عَن السَّيْر، وأمَرَ أبو بكْر بَعْض الرِّجال بإنزَالهم من الْجَبل، فَجَاءَوا بهم، وكَانَ بَيْنَ الْمُشْركينَ امْرَأةٌ تُسَمَّى (أم قرْفة) وابْنتهَا، وكَانَت بنتُ أم قرْفَة عَلَى جَانب كَبير منَ الْجَمال، وكَانَتْ مَخْطُوبَةً لأحد أشْرَاف مكَّةَ.

وكَانَتْ أمُّ قرْفَة هَذه قَدْ سَاعدَتْ الْمُشْركين وَدَفَعَتْ إلَيْهم أمْوَالاً كثيرةً إسْهاماً منْهَا فى اغْتيَال النّبىِّ عليه الصلاة والسلام. اغْتَاظت االْمَرْأة مَمَّا حدثَ لهَا وَللْمُشْركينَ فَقَالَتْ فى غَضَب: لَوْ علمَتْ قُرَيْشٌ بمَا حَدَثَ لَنَا لَهبتْ لنَجْدَتنَا، ولَكن كَيْفَ يَأتُونَ وَقَدْ حَاصَرنَا الْمُسْلمُونَ.

وَعَادَ أبو بَكْر رضي الله عنه، وَمَعَهُ رِجَاله إِلَى الْمَدِينَة الْمُنَوَّرَة، وَهُمْ يَسُوقونَ الْغَنَائمَ وَالأَسْرَى منَ الرِّجال وَالنساءَ، وَعَلَم رَسُولُ اللَّه ﷺ بوُجُودُ أمِّ قِرْفَةَ وَابْنَتها، اللَّتَيْن لمْ يُغْن عَنْهُمَا شُجْعان مكَّةَ شَيْئاً، ولاَ فُرْسَانَ وَاد الْقُرَى.

وَأَرْسَلَ النّبى ﷺ رَسُولاً منَ أَسْرَى وَادى الْقُرَى إِلَى كُفَّار مكَّةَ يُخْبِرُهُم بنتيجة سَرِيَّة أبى بكْر الصِّدِّيق، وَمَا جَرَى فى وَادى الْقُرَى، وَكَيْفَ جَاء رجَالُهُم أَسْرَى مَعَ أبى بكْر وجُنُوده، وَهَلْ كُفَّارُ قُرَيْش عَلَى اسْتِعْداد أنْ يَدْفَعُوا فدْيةً للأسْرَى أمْ لاَ يُرِيدُونَ ذَلكَ؟

وَطَلَبَ كُفَّارَ قُرَيْش أنْ يَفْتَدُوا أم قِرْفَةَ وَابْنتَهَا، وأرْسَلُوا إِلَى النَّبى ﷺ كَثِيراً منَ الأَمْوَال فَدْيَةً لَهُمَا، ولَكنَّ النَّبىّ ﷺ رَفَضَ هَذه الأَمْوَالَ وَطَلَبَ أن يُطْلَقَ كُفَّارُ قُرَيْش مَنْ كَانَ عنْدَهُمْ منَ أسْرَى الْمُسْلمينَ.

وَكَانَ أسْرَى الْمُسْلمينَ عنْدَ كُفَّار قُرَيْش عَدَداً قَليلاً، تَمَّتْ مُبَادلَتُهم بأمِّ قِرْفَةَ وَابنتَهَا، وَهكَذا كَانَتْ غَزَوَاتُ الرَّسُول ﷺ عَلَى أعْدَاء اللّه، وَكَانَ النَّصْرُ فيهَا دائماً بجَانب الْحَقِّ الدَّاعى إِلَيْه مُحَمَّدٌ ﷺ بوَحْى منَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ إِلَى النَّاس أجْمَعين.

صلح الحديبية

تَوَالى انْتصَارُ جَيْشِ الْمُسْلمينَ عَلَى أعْداءِ اللّه فى عَدَدٍ منَ الْمَواقِعِ، وَصَارَ الْمُشْرِكُونَ فى قَلَقٍ دائمَ وَخَوْفٍ مُسْتَمرٍ من انْتشَار الإسْلام فى كَثيرٍ منَ الْبِقَاعِ، فَانْهَارَتْ رُوحُهُمُ المعْنَويّةُ، وَفقَدُوا الأمَلَ فى وقف الدّعْوة الإسْلاميّة عنْدَ حَدٍّ. وكَانَ الْمُسْلمُونَ قَدْ مَضَى عَلَيْهِمْ ستّةَ أعْوَامَ وَهُمْ يَعيشُونَ فى الْمَدينَة الْمُنَوَّرَة بَعيداً عَنِ الْمَسْجد الْحَرَام فى مكّةَ، وَقَدْ مَلأ الشَّوْقُ أفْئدَتَهُمْ لزيَارَة الْكَعْبة والطَّوَاف حَوْلَهَا، وَالتَّعَبُّد فى رحَابهَا.

وَذَاتَ يَوْمٍ رَأى النَّبىُّ ﷺ فى مَنَامه أنَّهُ يَدْخُلُ المسْجدَ الْحَرَامَ هُوَ وأصْحَابُهُ وَيَطُوفُونَ بالْكَعْبَة مَعْتَمرينَ، فَأخْبَرَ أصْحَابَهُ بمَا رَأى، وَبَشَّرَهُمْ بأنَّهُمْ سَيَذْهَبُونَ إلى مَكَّةَ، وَسَيُؤدُّونَ الْعُمْرَةَ، وَأمَرَهُمْ بالاستعْدَاد لذَلكَ، فَفَرحَ الْمُسْلمُونَ فَرَحاً عَظيماً، وَبَدَأ كُلٌّ منْهُمْ يُعدُّ نَفْسَهُ للسَّفَر إلَى مكَّةَ.

وَبَعَثَ النَّبىُّ ﷺ، إلَى الْعَرب الَّذينَ يَسْكُنُونَ حَوْلَ الْمَدينَة، وَالَّذين يَعيشُونَ فى الْبَادية لكَىْ يَخْرُجُوا مَعهُ، فَأبْطَأ كَثيرٌ منْهُمْ، وَأجَابَهُ بَعْضُهُمْ.

وَفِى يوْمِ الإثْنَيْنِ غُـرَّةَ شَـهْـرِ ذى الْقـعْـدَة فى السَّنَة السَّادسَـة منَ الْهجْرَة كَانَ النَّبى ﷺ يُغَادرُ الْمدينَةَ إلىى مكَّةَ، وَمَعَهُ أَلْفٌ وَخُمْسمائَةُ رَجُلٍ لاَ يَحْملُونَ من السَّلاحِ إلاَّ السُّيُوفَ فى أغْمادهَا، وَذَلكَ لأنَّ النَّبى ﷺ لَمْ يكُنْ يُريدُ الْحَرْب.

وَفِى الْوَقْت نَفْسه احْتَاطَ النَّبىُّ للأَمْر، وَوَضَعَ فى اعْتبَاره أَنَّهُ قَدْ يُسَاقُ إلى الْحَرْبَ مَعَ الْمُشْركينَ، فَنَصَحَ أَصْحَابَهُ رضْوَانُ الله عَلَيْهم أنْ يَسْتَعدُّوا لذَلكَ، فَإنْ حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْت الْحَرَام أحَدٌ قَاتَلُوهُ. وَعَلَمتْ بـذَلكَ قُرَيْـشٌ، فَعَقَدَ كـبارُ الْمُشْـركيـن مَجْلسـاً قَرَّرُوا فيه أنْ يَصُدُّوا الْمُسْلمينَ عَنْ دُخُول مكَّةَ مَهْمَا كَانَت النَّتَائجُ.

وكَانَ خَالدُ بْنُ الْوَليدُ لا يَزَالُ فى صُفُوف الْمُشْركينَ ولَمْ يَدْخُل الإسلام بَعْدُ، فَخَرَجَ وَمَعَهُ ثلاثُمائَةَ فَارس يَرْكَبُونَ الْخَيْل، وَمائَتَا رَاجل يَسيرُونَ عَلَى أرْجُلهمْ وَقَد اسْتَعَدُّوا لقتال الْمُسْلمين وَمَنْعهمْ منْ دُخُول مَكَّةَ، وَفـى الطَّريق رَأى خَـالدٌ الْمُـسْلمـينَ يُصَلُّونَ الظُّهْـر، يَـرْكَـعُـونَ وَيَسْجُـدُونَ، فَـقَـالَ فى نَفسـه: لَيْتَنى حَمَلْـتُ عَلَيْـهمْ. وأخَذْتهُم عَلَى غرَّة، وَاسْتَرَحْتُ منْهُم فى لَحَظَات.

فَكَّرَ خَالدُ بْن الْوَليد طَويلاً فى هَذه الفُرْصَة الَّتى ضَاعَتْ منْهُ، فَقَرَّرَ أنْ يَهْجمَ عَلَى الْمُسْلمين فَجْأَةً وَهُم يُصلُّونَ الْعَصْرَ، ولَكنَّ الله تَعَالَى

أوْحَى إلى نَبيّه عَلَيْه الصَّلاَةُ وَالسلامُ بِمَا يَدُورُ فى نَفْسِ خَالَد، فسَارَ بأصْحَابه فى طريق وَعْر بَيْنَ الشّعَاب تَاركاً الطَّريق الرَّئيسىَّ، وَعَادَ خَالدٌ إلَى قَوْمه ليُنْذرَهُمْ وَيُخْبرَهُمْ بِمَا رَآهُ من قُوَّة الْمَسْلمينَ.

وَسَارَ جَيْشُ الْمُسْلمينَ، وَبالقُرْب منْ مكَّةَ بَركَتْ نَاقَةُ النَّبىّ ﷺ، وَتَسَاءَل الصَّحَابَةُ رضوْانُ اللّه عَلَيْهم عَنْ سَبَبَ ذَلك. فَقَالَ النَّبىُّ ﷺ: مَا تَعبَت النَّاقَةُ وَلَكن حَبَسَهَا حَابسُ الْفيل. وكَانَ الْمكَانُ الَّذى بَركَتْ فيه النَّاقَةُ هُوَ «الْحُدَيْبيَّةُ». وَهُنَاك أحَسَّ الْمُسْلمُونَ بالْعطَش، فَشكَوْا ذَلكَ للنَّبىّ عَلَيْه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، فَانْتَزَعَ سَهْمَاً وَدَقَّهُ فى الأرْض فَانْدَفَعَ الْمَاءُ بقُوَّة.

وَجَاءَ إلى الْمُسْلمينَ رَجُلٌ منْ قَبيلةَ خُزَاعَةَ، فَقَالَ لرَسُول اللّه ﷺ: إنْ كُنْت عَازمَاً عَلَى دُخُول مكَّةَ، فَاعْلمْ أنَّ قُرَيْشَاً قَدْ عَزَمَتْ عَلَى قتَالكُمْ وَمَنْعكُمْ عَنِ الْبَيْت الْحَرَامَ. فَقَالَ عَليه الصَّلاةُ وَالَّسلامُ: نَحْنُ لَمْ نَأت للْقتَال، وَلَكنْ أتَيْنَا مُعْتَمرين، فَلَئنْ صَدَّتْنَا قُرَيْشٌ عَنِ الْبَيْت الْحَرَام، فَوَالّذى نَفْسى بيده لأقَاتلنَّهُمْ حَتَّى يُنْفذَ اللّهُ أمْرَهُ.

قَالَ الرَّجُلُ: سَأذْهَبُ إلى قُرَيْش وأبلغُهُم ذَلكَ، وَرَجَعَ إلى الْمُشْركينَ وَقَالَ لَهُمْ: لَقَدْ جئْتُكُمْ منْ عنْد مُحَمَّد، وَسَمعْتُهُ يَقُولُ قَوْلاً، فَإنْ شئْتم عَرَضْتُهُ عَلَيْكُمْ. فَقَالَ زُعَمَاءَ الْمشْركينَ: لا نُريدُ أنْ

نَسْمَعَ شَيْئاً وقَالَ بَعْضُهُمْ: لا ضَرَرَ فِي أنْ نَسْمَحَ، فَأخْبِرْنَا بِما قَالَ. فَرَوَى لَهُم الرَّجُلُ مَا سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللّه ﷺ.

بَعَثَتْ قُرَيْشٌ أحَدَ رِجَالِهَا لِيَتَبَيَّنَ الْأمْرَ، فَلَمَّا جَاءَ إلَى الْمُسْلِمِينَ سَمِعَ الْكَلامَ كَمَا أبْلَغَهُمْ بِهِ الرَّجُلُ الخُزَاعِيُّ، فَلَمَّا عَادَ إلَيْهِمْ وأخْبَرَهُمْ بِهِ لَمْ يُصَدِّقُوهُ، وبَعَثُوا رَجُلاً آخر يُدْعى أبا عَلْقَمَةَ، وكَانَ مَعْرُوفاً لِلْمُسْلِمِينَ، وسَمِعَ مِنْهُمْ مَا يُرِيدُونَ، فَقَالَ أبُو عَلْقَمَةَ: مَا يَنْبَغِي لأحَدٍ أنْ يَصُدَّ هَؤلاءِ النَّاسِ عَنِ البَيْتِ. وعَادَ إلى قُرَيْشٍ وحَاوَلَ إقْنَاعَهُمْ بِأنْ يَسْمَحُوا لِلْمُسْلِمِينَ بِدخُولِ مكَّةَ.

ولَكِنَّ الشَّكَّ مَازَالَ بِصُدُورِ الْمُشْرِكِينَ، فأرْسَلُوا رَجُلاً آخَرَ هُوَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ مَا قَالَهُ لِلرَّجُلَيْنِ قَبْلَهُ. وتَطَاوَلَ عُرْوَةُ إذْ كَانَ يَتَكَلَّمُ وهُوَ يَمَسُّ لِحْيَةَ النَّبِيِّ ﷺ، وكَانَ يَقُولُ: هَلْ سَمِعْتَ يَا مُحَمَّدُ بِأحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَاحَ قَوْمَهُ قَبْلَكَ؟ وكَانَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَاقِفاً بِجوَارِ النَّبِيِّ ﷺ وبِيَدِهِ سَيْفُهُ يُرِيدُ أنْ يَضْرِبَ بِهِ يَدَ عُرْوَةَ وهُوَ يَقُولُ لَهُ: ابْعِدْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ النَّبِيِّ وأنْتَ تُخَاطِبُهُ.

أخَذَتِ الدَّهْشَةُ عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ لِمَا رَأى ومَا سَمِعَ، فَعَادَ إلَى قَوْمِهِ يَقُولُ لَهُمْ: لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ كَقَيْصَرَ وكِسْرَى والنَّجَاشِيِّ

فَمَا رَأَيْتُ مَلِكاً يُعَظِّمُهُ قَوْمُهُ كَمَا يُعَظِّمَ أَصْحَابُ مُحَمَّد مُحَمَّداً، وإِنِّى لأَرَى أَن أَنْ تَقْبَلُوا عَرْضَهُ، وتَتْرُكُوهُ أَنْ يَطُوفَ بالْبَيْتِ، وَيَعُودُ إلى الْمَدِينة، وكَفَاكُمْ ما لَقِيتُمْ منْهُ ومنْ أَصْحَابه فى اللِّقَاءات السَّابقَة.

تَشَاوَرَ زُعَمَاءُ الْمُشْرِكينَ فيمَا بَيْنَهُمْ، وكَادَ زُعَمَاؤُهُمْ يتفقُونَ عَلَى الصُّلْحِ، ولَكنَّ بَعْضُ شَبَابِهِمْ أَخَذَتْهُمُ الْحميَّةُ وَطَيْشُ الشَّبَابَ فَرَفَضُوا الْمُصَالَحَةَ، وعَزَمُوا عَلَى قتَال الْمُسْلمينَ، وفَكَّرُوا فى خطَّة يَمْنَعُونَ بهَا هَذَا الصُّلْحَ، فَقَرَّروا أَنْ يَخْرُجُوا لَيْلاً فَى عَدَدٍ كَبير ليغيروا عَلَى مُعَسْكَرِ الْمُسْلمين.

ظَنَّ شَبَابُ الْمُشْرِكينَ أَنَّ هُجُومَهُمْ عَلَى الْمُسْلمين لَيْلاً سَيُمَكِّنُهُمْ منَ الانْتصار، فَخَرَجَ منْهُمْ تسْعُونَ بكامل سلاحهمْ، وَهَبَطُوا منَ الْجَبَل فى مُحَاوَلَة للتَّسَلُّل إِلَى مُعَسْكَرِ النَّبىِّ وأَصْحَابه، غَيْرَ أَنَّ حَرَسَ الْمُعَسْكَرِ اكْتَشَفُوا خطَّتَهُمْ فَهَاجَمُوهُمْ وأَسَرُوهُمْ جَميعاً. وفى الصَّبَاحِ أَطْلَقَ النَّبىُّ ﷺ سَرَاحَهُمْ رَغْبَةً فى الصُّلْحِ وأَدَاء الْعُمْرَةَ بلا قتَال.

وأَرَادَ النَّبىُّ ﷺ أَنْ يَشْرَحَ لزُعَمَاء قُرَيْشٍ غَرَضَهُ منَ الْمَجىء إِلَى مَكَّةَ، فَأَرْسَلَ عُثْمَانَ ابْنَ عَفَّانَ سَفيراً إِلى قُرَيْشٍ ليُخْبرَهُمْ أَنَّ الْمُسْلمين لَمْ يَأْتُوا مُقَاتلينَ إِنَّمَا جَاءُوا مُعْتَمرينَ. وعَرَضَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى عُثْمَانَ رضي الله عنه أَنْ يَطُوفَ بالْبَيْت، لَكنَّهُ رَفَضَ ذَلكَ، وأَبَى أَنْ يَطُوفَ بالْكَعْبَة

قَبْل أنْ يَطُوفَ بِهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ.

غَضِبَ زُعَمَاءُ قُرَيْش منْ عُثْمَانَ رضي الله عنه، واحْتَبَسُوهُ عنْدَهُمْ، ولَمَّا طَالَ غيَابُهُ أشيع بَيْنَ الْمُسْلمين أنَّ عُثْمَانَ قَدْ قُتلَ، وبَلَغَتْ هَذه الشَّائعةُ النَّبيَّ ﷺ فَقَالَ: لَنْ نَبْرَحَ هذَا الْمَكَانَ حَتَّى نُقَاتل قُرَيْشاً. ودَعَا أصْحابَهُ إلَى الْبَيْعَة فَجلَسُوا تَحْتَ شَجَرة وبَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْت، وعَلَى ألاَّ يَفرَّ منْهُمْ أحَدٌ، و سُميَتْ هَذه الْبَيْعَةُ بـ« بَيْعَة الرضْوَان » لقَوْل اللَّه تَعَالَى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [سورة الفتح آية: ١٨]

وبَيْنَمَا كَانَ الْمُسْلمُونَ يُعدُّونَ أنْفُسهُمْ للْقتَال عَادَ إلَيْهمْ عُثْمَانُ بْنُ عفَّان رضي الله عنه، ورَأى زُعَمَاءُ الْمُشْركينَ أنَّ موْقفَهُمْ حَرجٌ، فَبَعَثُوا إلى النَّبيّ رَسُولاً منْ عنْدَهُمْ هُوَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرُو ليَعْقدَ الصُّلْحَ مَعَ النَّبيّ، وكَانَ ممَّا قَالَهُ سُهَيْلٌ: إنَّ قُرَيْشاً تُريدُ أنْ تَرْجعَ هَذَا الْعَامَ أنْتَ وأصْحَابُكَ دُونَ الطَّوَاف بالْبَيْت، حتَّ لاَ يَتَحدَّثُ الْعَربُ عَنْ قُرَيْش أنَّ مُحَمَّدًا دَخَلَ ديارَهُمْ عُنْوَةً.

واسْتَطْرَدَ سُهَيْلٌ يَقُولُ: وفى الْعَام الْمُقْبل يَدْخُلُ الْمُسْلمونَ مكَّةَ مُعْتَمرين، ويَقيمُونَ بهَا ثَلاثَةَ أيَّام، ولا يَتَعَرَّضُ لَهُمْ أحَدٌ، كَمَا تَتَوقَّفُ الْحَرْبُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ عَشْرَ سنين، يَأمَنُ فيه كُلٌّ منْهُمَا، ومَنْ أحَبَّ أنْ

يَدْخُلَ دينَ قُرَيْشٍ دَخَلَ فيه، وَمَنْ أَتَى مُحَمَّداً هَارِباً مِنْ قُرَيْشٍ رَدَّهُ، وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشاً هَارِباً مِنَ الْمُسْلِمين لاَ يَرُدُّوهُ إِلَيْهِمْ.

ووَافَقَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى هَذه الشُّروط، وكَتَبَ كِتَاباً بذَلكَ، وَسُمِّيَتْ «هُدْنَةُ الْحدَيْبيَةُ» لَكنَّ الْمُسْلمينَ حَزِنُوا لعَدَمِ دُخُولِهِمْ مكَّةَ، وَشَعَرُوا أنَّ هَذه الشُّروطَ ظَالمَةٌ، فَبَشَّرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بأنَّ هَذَا هُوَ بدَايَةُ الْفَتْحِ الْمُبين، إذْ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، وفي آخر السورة: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وَعندَمَا عَادَ جَيْشُ الْمُسْلمينَ إلَى الْمَدينَة وَاطْمأنَّ بهَا، هَربَ أحَدُ الْمُسْلمينَ ممَّنْ كَانُوا يُعذَّبُونَ في مَكَّةَ، ولَمَّا وَصَلَ إلَى الْمَدينَة أرْسَلَت قُرَيْشٌ رَجُلَيْنَ يَطْلُبُونَ من النَّبيِّ ﷺ تَنْفيذَ بُنُود الْمُعَاهَدَة بعَوْدة هَذَا الْمُسْلمْ إلى قُرَيْش، ولَمْ يَشَأ النَّبيُّ أنْ يَخْرقَ الْمُعَاهَدَةَ، فَأمَرَ الرَّجُلَ أنْ يَعُودَ إلى مكَّةَ مَعَ الرَّجُلَيْن، وأمَرَهُ أيْضاً بالصَّبْر حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَهُ مَخْرَجاً، وفي الطَّريق جَلَسَ الثَّلاثَةُ ليَسْتَريحُوا منْ تَعَب السَّفَر.

وَفَاجَأ الْمُسْلمُ الرَّجُلَيْن، إذْ سَلَّ سَيْفَ أحَدهمَا وقَتَلَ أحَدَهُمَا وفَرّ الآخَرُ. وعَادَ الرَّجُلُ الْمُسْلمُ إلَى الْمَدينَة مَرَّةً أخْرَى، وأسْرَعَ إلى النَّبيِّ قَائلاً: يَا رَسُولَ اللَّه ﷺ لَقَدْ رَدَدْتَنى إليْهِمْ ولَكنَّ الله أنْجَانى

منْهُمْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ : سَيَأْتُونَ فى طَلَبك، ولَنْ أمْنَعَهُمْ منْ ذَلكَ. وَخَشى الرَّجُلُ عَلَى نَفْسه وَخَرَجَ منَ الْمَدينة إلى الشَّام حتَّى لا يَعُودَ إلَى قُرَيْش.

هَرَبَ رَجُلٌ آخَرَ منْ قُرَيْش ممّنْ كَانُوا يُعَذَّبُونَ ولَحقَ بالرَّجُل الأوَّل، وتَبعَهُ آخَرُونَ أسْلَمُوا، وَعَسكَرَ الْجَميعُ بالْقُرْب منْ طَريق تَمُرُّ به تجَارَةُ قُرَيْش، وكَانُوا يَسْتَوْلُون عَلَى قَوَافل قُرَيْشَ لأنَّهَا كَانَتْ تُعَذِّبُهُمْ فى مكّةَ وتَأخُذُ أمْوَالَهُمْ.

رَأتْ قُرَيْشٌ أنَّ هَؤُلاَء الْمُسْلمينَ أصْبَحُوا شَوْكَةً فى حَلْقهمْ، فَهُمْ هَاربُونَ فى الصَّحرَاء لاَ يَسْتَطيعُونَ إمْسَاكَهُمْ، فَأرْسَلُوا إلى النَّبىِّ ﷺ بأنْ يُلْغَى بَنْداً من بُنُودَ الْمُعَاهَدة وَهُوَ ذَلكَ الْبَنْدُ الّذى يَنُصُّ علَى أنَّهُ مَنْ أتَى مُحَمَّداً أعَادَهُ إلَيْهمْ، فَيُصْبحُ هَذَا الْبَنْدُ بَعْدَ تَغْييره: مَنْ أتَى مُحَمَّداً هَارباً منْ قُرَيْش فَهُوَ آمنٌ ولَنْ تُطَالبَ به قُرَيْشٌ.

أرْسَلَ النَّبىُّ ﷺ إلَى هَذه الْجَمَاعَة الْهَاربَة فَجَاءُوا إلَى الْمَدينة، وَعَاشُوا مَعَ إخْوَانهمُ الْمُسْلمين. وَفى أوَائل الْعَامَ السَّابع من الْهجْرة، بَعْدَ الْهُدْنَة بعام، وَصَلَ إلى الْمَدينةَ وَاحدٌ منْ فُرْسَان قُرَيْش هُوَ عَمْرُو بْنُ العَاص، أعْلَنَ إسْلاَمَه وَعَزَمَ عَلَى الْبَقَاء بالْمَدينة.

وَبَعْدَ قَليلٍ تَبعَهُ خَالدُ بْنُ الْوَليد، وَعُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ وَغَيْرُهُمَا،

جَاءُوا إِلَى الْمَدِينَةِ مُسْلِمِينَ، فَامْتَلأَ قَلْبَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ سُرُوراً. وَقَالَ لأَصْحَابِهِ: لَقَدْ أَلْقَتْ إِلَيْنَا مَكَّةَ بِأَفْلاذِ أَكْبَادِهَا.

وَبِذَلِكَ كَانَتْ هُدْنَةُ الْحُدَيْبِيَةِ بِدَايَةَ عَهْدٍ جَدِيدٍ فِي حَيَاةِ الإِسْلامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

لَقَدْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ شَرِّ قُرَيْشٍ، وَكَانَتْ مُعَاهَدَةُ الْحُدَيْبِيَةِ إِحْدَى دَعَائِمِ الاسْتِقْرَارِ، وَلَكِنَّ الْيَهُودَ بَعْدَ جَلائِهِمْ عَنِ الْمَدِينَةِ جَعَلُوا خَيْبَرَ وَكْراً لِلدَّسِّ وَالتَّآمُرِ ضِدَّ الإِسْلامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

وَرَاحَ الْيَهُودُ يُشْعِلُونَ نَارَ الْفِتْنَةِ، وَيُغَرِّرُونَ الأَعْرَابَ لِلْقَضَاءِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ مَعَهُ، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ إِلْحَاقُ الْخَسَائِرِ بِهِمْ، وَكَانَ أَوَّلُ مَا فَكَّرَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ الْهُدْنَةِ هُوَ أَنْ يَشُنَّ الْحَرْبَ عَلَى الْيَهُودِ فِي دَارِهِمْ.

لَقَدْ تَمَكَّنَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْقَضَاءِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ بِفَضْلِ اللهِ ثُمَّ بِفَضْلِ هَذِهِ الْهُدْنَةِ التِي تَخَوَّفَ مِنْهَا الْمُسْلِمُونَ فِي أَوَّلِ الأَمْرِ، كَمَا كَانَتْ بِدَايَةُ فَتْحٍ كَبِيرٍ لِلْمُسْلِمِينَ، وَصَدَقَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ [الفتح: ١]، فَقَدِ انْتَشَرَ الإِسْلامُ، وَكَثُرَ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ، وَارْتَفَعَتْ رَايَةُ الدِّينِ فِي أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

غـــزوة خيبـر

خَيْبَرُ مَدينَةٌ كَبيرَةٌ ذَاتَ حَصُون عَظيمة، كَانَتْ تَبْعُدُ عَن المَدينَة بِثَمَانين ميلاً تَقْريباً، وكَانَ يسْكُنُهَا قَوْمٌ منَ الْيَهُود، والْمَعْرُوفُ أنّ اليَهُودَ هُمْ رَأسِ الدَّس والتَّآمُر ضدَّ الْمُسْلمين فى كُلِّ زَمَان، وَفى كُلِّ مكَان. فلما عَلموا بمُعَاهَدة صُلْحَ الحُدَيْبيـة التّى تمّت بَيْنَ قُرَيش والْمسُلْمين مَلأ الْحَقْدُ قُلُوبَهُمْ، واغْتَاظُوا لذَلكَ غَيْظاً شَديداً. فَاجْتَمَع زُعَمَاءُ يَهُود خَيْبَر يَتَشَاوَرُون فيما بيْنَهَم، فقال واحدٌ منْهُم: لَقَدْ حَزَّبْنَا الأحْزَابَ ضدَّ الْمُسْلمينَ، واتَّصلْنَا ببَنى قُرَيْظَةَ واتَّصلْنَا بالمنَافقين وأعراب البَادية وأغْرَيْنَاهَم بالعَمَل ضدَّ الْمُسْلمينَ، وكَلُّ ذَلكَ لَمْ يُغْن عَنَّا شَيئْاً، بَلْ كَانَ نَصيبُنا الفَشَلَ فى كُلِّ خُطْوَة نَخْطُوهَا، والْمُسْلمُونَ يَزْدَادُون قُوَّة، والإسْلاَم يَزْدَادُ انْتشَاراً.

قَالَ يَهُودىٌّ آخَرُ: عَلَيْنَا أنْ نُعدَّ أنْفُسَنَا لقَتَال الْمُسْلمينَ، ونَحنُ نَمْلكُ السِّلاَحَ والْمَالَ، وَمَا عَلَيْنَا إلا أنْ نَضعَ خطَّةً مُحْكَمَةً لاغْتيال مُحَمَّد، واتَّفَقَ الجميعُ عَلَى الاسْتعدادَ لمحَارَبَة الْمُسلمينَ، والقَضَاء عَلَى رَسُول اللّه ﷺ وأصْحَابه والتَّخَلص منْ دَعْوَتهم وقَرَّرُوا الاسْتعَانَةَ بيَهود غَطَفَان وبَعْض قَبَائل الْمُشركين.

عَلِمَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بِمَا أَجْمَعَ عَلَيه يَهُودُ خَيْبَر فَقَرَّرَ عِقَابَهُمْ، وأَعْلَنَ الْخُرُوجَ إلى خَيْبَر، وطَلَبَ ألا يَخْرُجَ مَعَهُ إلاَّ رَاغِبٌ فى الجِهاد، فَخَرَجَ إليه أصحابُ بَيْعَة الرِّضْوَان الّذين بَايَعُوهُ تَحتَ الشَّجَرَة، قَبْلَ عَقْد مُعَاهَدَة الْحُدَيْبِيَة، أمَّا ضُعفَاء الإيمان والْمُنَافقُونَ فَلَمْ يَخْرجْ منْهُمْ أحَد.

وكَانَ فى الْمَدينَة كَثيرٌ منَ الْمُنَافقين فَذَهَبَ وَاحدٌ منهُم إلى يَهُود خَيْبرَ، وَاجْتَمَعَ برُؤسائهم وقَالَ لَهُمَ: إن مُحَمداً وأَصْحَابه قَدْ خَرجَوا إليكُمْ فى عَدَد قَليل لا يزيد عَلَى ألْف وَخَمْسُمَائَة رجُل، بسلاحهمْ القَليْلُ، فَخُذُوا حذْرَكُمْ وَأعدُّوا أنفُسكُمْ للقائهم فأنتم أكثر عدداً وأقوى سلاحاً، ولاَبُد أنكُم مُنتصرون.

أسْرَعَ يَهودُ خَيْبَر فى إعْداد أنْفُسهم، وأرْسلُوا إلى يَهُود غَطَفَانَ يَطْلُبُونَ الْعَوْنَ وْالمَدَد فَأرْسَلَ يَهُودُ غَطَفَانَ إلى يهود خَيْبَر شُرُوطاً لهَذَا التَّعَاوُن، منهْا أنْ يأخُذُوا نصْف ثمار خَيبرَ، ونَصْفَ الغَنَائم إذا أنْتصَروا عَلى الْمسْلمين، فَوَافَق يَهُودُ خَيْبرَ عَلى هذه الشروط.

سَلَكَ رَسُول اللَّه ﷺ هُوَ وَأصْحَابه الطَّرِيقَ نَحْوَ خَيْبَرَ، حَتَّى نَزَلُوا وَادى الرَّجيع الْقَريب منْ غَطَفَانَ، وكَانَ يَهُودُ غَطَفَان فى هَذَا الوَقْت فى طَرِيقهمْ إلى خَيْبَرَ، فالتَقَى بهم رَجُلاَن أخْبَراهُم أنَّ جَيشَ المسْلمَين قَدْ دَخَلَ دِيارَهُم فى أرْض غَطَفَان وأنّهُمْ يكَادُونَ يَسْتَوْلُونَ عليها.

ظنَّ اليَهُودُ أنّ المسْلمينَ قَدْ أغَارُوا عَلَى دِيَارهم وَعَشيرتهم فى غَطَفَان فَعادوا مُسرعين بعد مسيرة يومين، وعنْدَمَا دَخَلوا دِيَارَهمُ وَجَدوُا كُلَّ شَىْءٍ عَلى حَاله، فَأدْرَكُوا أنَّها خُدْعَةٌ لكَى لاَ يُشَاركُوا يَهُودَ خَيْبَر فى قتال المسلمين، وأيْقَنُوا أنّ جَيْشَ المُسلمين فى طَرِيقه إلى خَيْبَر، وَعَمَّا قَليل سَيَجْتَاحُها.

وفى وَاد قُرْبَ خَيْبَرَ صَلَّى المُسْلمونَ العَصْرَ ثُم المَغْربَ، واسْتَمَرُّوا فى سَيرهم لَيْلاً، وتَقَدَّمواُ نَحوْ هَدَفهم فى هدَوء. وَقَالَ الدّليلُ الّذى يُرْشدُهُم إلى الطَّريق، وَهُوَ يُشيرُ بيَده إلى الأمَام: إنَّ خَيْبَرَ على بُعْد خَمَسةَ أميَال، ونَحْنُ نسلك طَريقاً غَيْرَ الطَّريق الرَّئيسى حتَّى لاَ يكْتشفُنَا الْعَدُوُّ. فبماذا يَأمُرَ رَسُولُ اللَّه ﷺ؟

قَالَ النَّبىُّ عَلَيْه الصّلاةُ وَالسَّلاَمُ: لنَقْتَرب قَليلاً، ثُمَّ نُعْسكر لكَىْ يأخُذُ الرِّجَالُ قسْطاً منْ الْرَاحة قَبْلَ بَدْء الهُجوم. وَبَاتَ الْمسْلمونَ تلْكَ اللّيْلَة بالقُرْب منْ عَدُوِّهم. فَلَما أسفَرَ الْفَجر ﷺ بأصْحَابه صَلاَةَ الصُبْح، وأعدُّوا أنْفُسَهُمْ لمُواجَهَة يَهُودَ خَيْبَر فى حُصُونَهم الَتى لا تَبْعُدُ عَنْهُم إلاّ خطَوات.

خَرَجَ أهْلُ خَيْبَرَ فى الصَّبَاح إلى أرْضهمْ الّتى يَزْرَعُونَها حَوْل ديَارهم فَشاهَدُوا جَيشَ المسلمينَ عَنْ بُعْد، فَعَادُوا فَزعينَ إلى ديَارهم يَصرُخُونَ قَائلينَ: إنَّ مُحَمداً وأصْحَابه عَلَى أبْوَاب خَيْبَر. وفَزعَ أهْلُ

خَيْبَرَ مَنْ المفاجَأة، وأخَذَتْهم الدَّهْشَةُ ، لَقَدْ وَضَعُوا مَنَ يُراقبُ الطَّرِيقَ، ولَكنَّ مُحَمَداً وَأصْحَابَهُ قَدْ أخْلَفُوا ظنُونَهُم ولَمْ يَسْلكُوا الطَّرِيقَ الرَّئيسىّ.

أسْرَعَ يَهُودُ خَيْبَرَ إلَى حُصُونهم ليُعدُّوا أسْلَحَتَهُمْ، وَيُجَهِّزُوا أنْفُسَهُم للدِّفَاع عَنْ ديَارهَم، بَيْنَمَا اجْتَمَعَ الرَّسُولُ ﷺ مَعَ أصْحَابه يَتَشَاوَرُونَ، وَيُفكِّرُونَ فى الطَّرِيقَة الّتى يَنْبَغى اتّبَاعُها فى الْقتَال، فَقَال وَاحدٌ من الصّحَابَة: يَا رَسول اللّه ﷺ، إنَّ هَذَا الْمكَانَ الذىَ نَقفُ فيه قريبٌ جداً منْ أحَد حُصُونهم الّذى به عَدَدَ غيْرُ قَليل منْ مُقَاتليهم، وَهُمْ يَعْرفُونَ أحْوَالَنَا وَنَحْنُ لاَ نَعْرفُ عَنْهُم شَيْئاً . ثُمْ إنَّ سهَامَهُم قَدْ تَصلُ إلَيْنَا . .

وَقَالَ رَجُلٌ آخرَ مَن الْمُسْلمينَ : وَقَدْ لاَ تَصلُ سهَامُنَا إلَيْهُم لأنَّهم آمنُونَ فى الْحُصُون، كَمَا أنَّ مكَانَنَا هَذَا غَائر، فَلَيْتَكَ يَا رَسُولَ اللّه ﷺ تَأمْر بمكَان آخرَ نَتّخذُهُ مَعسكْراً؛ فَقَالَ النَّبىَ عَلَيْه الصَّلاَةُ وَالسَّلام: لَقَدْ أشَرْتُم بالرَّأى، فَلْنَتحَوَّلْ إلى مكَان آخرَ وَاحتلَّ جَيْشُ الْمُسْلمينَ أمَاكنَ أكْثَر سَلاَمَةً، وأخَذُوا وَضْعَ الاسْتعْدَاد للْقتَال فى مُوَاجَهَة خيْبَر.

كَانَت خَيْبَرَ تَتَميّزُ بحُصُونها الْكَثيرةُ وقلاَعهَا الْعَظيمُة، وَكَانَ هُنَاكَ ثَمَانيَةُ حُصُونَ هى أشَدُّ الْحُصُون وَأقْوَاهَا، وَكَانَ حصْنُ «ناعم» هُوَ

خطُّ الدفاعِ الأوَّل بالنِّسْبَة ليَهُود خَيْبَرَ ويَقودُ اليَهُود بداخل الحصْن زَعيمهُمُ الْمَعْروفَ «مرحَبْ» الّذى جعَل اَلْيَهُودُ منْهُ مَثَلاً أعْلَى للْبُطُولَة والإقْدام والْمَهارَة الْقتاليَّة.

ولأنَّهَ لاَ يَفلُّ الْحَديَد إلاَ الْحَديد، خَرَجَ عَلىّ بْنُ أبى طَالب رضي الله عنه ومَعَهُ بَعْضُ الْمُقَاتلين إلى حصن «نَاعم» ودَعَا مَنْ فيه منَ الْيَهُود إلى الإسْلام، فَرفَضوا الدَّعْوَةَ وَخَرَجَ قَائدُهُم «مَرحَبْ» إلَى مَيْدَان الْقتَال يَدْعو الْمُسْلمينَ إلىَ الْمُبَارزَة، وَهُوَ يُلَوّحُ بسيفه قَائلاً:

قَدْ عَلمَتْ خَيْبَرُ أنّى مرْحَبْ

شَاكى السّلاحَ بَطَلٌ مُجرَّبْ

إذَا الْحُروبُ أقْبَلَتْ تلَهَّبْ

فَبَرَزَ لَهُ عَلىٌّ بْنُ أبى طالب، وتَقَاتَلاَ بضْعَ لَحظات، وَضَربَ «عَلىٌّ» رأسَ «مَرْحَبْ» فَقَتَلَهُ، وكَانَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْه، وَبَعْدَ مَوت «مَرْحَبْ» دَارَ قتَالٌ عَنيفٌ قَتَلَ الْمُسْلمُون فيه بَعْضَ كبَارَ الْيَهُود، فَانْهَارَتْ مُقَاوَمَةُ مَنْ فى الْحصْن بَعْدَ قتال مَرير استَمَرَّ عدّةَ أيَّام، لاَقَى فيها الْمُسْلمُونَ مُقَاوَمةً شَديدَةً منْ الْيَهُود الذينَ فَزعَوا أخيراً وَهَربُوا إلى حصنٍ آخَرَ.

وَاحْتَلَ الْمُسْلمُونَ حصْنَ «نَاعم» وَأعَدّوا أنْفُسَهُم للْهجُوم عَلَى

حصْنُ «الصّعْب» فَأمَرَ رَسُولُ اللَّه ﷺ اَلْحبّابَ بْن المنْذر الأنْصارىّ أنْ يكونَ قَائداً للمسْلمين فى الْهُجُوم عَلَى الحصنَ، فَحَاصَر الحُبَابُ الحصْنَ ثَلاثَةَ أيَام دَارَت المبَارَزَةُ وَالْقتَالُ أمَامَ الْحصْن وَقَبْلَ أنْ تَغْرُبَ الْشَّمْسُ كَانَ الْمسْلمونَ قَد اسْتَوْلُوا عَلَى حصْنِ «الصّعْب» كَمَا اسْتَوْلُوا قَبْلهَ عَلَى حصْنِ «نَاعِم».

وَجَدَ الْمُسْلمُونَ فى هَذَا الْحصْن طَعَامَ خَيْبَرَ وَمؤنَتهَا وسَلاحَهَا، وَفَزَع الْيَهُودَ لَمَا يأتيهُم منْ أنْبَاء الْمُسْلمينَ، وَدَبّتْ بَيْنَهمُ الاخْتلافَاتُ وَتَنَاقَضَتْ الآرَاء، وَتَحولَ الْيَهُودَ إلَى حصْنِ «الزُبَيرْ».

وَهُوَ حصْنٌ مَنيعٌ ثَالثٌ يَصْعُبُ الوصُولُ إلَيه.. وَلَكنّ النَّبىَ ﷺ أمَرَ الْمُسْلمينَ بمُحَاصَرة هذا الْحصن كَمَا حَاصَرُوا الْحُصُون السَّابقَة.

وَاسْتَمَرّتْ مُحَاصَرَةُ حصْن الزُّبَيْرَ ثَلاثَةَ أيَّام أيْضاً، لَمْ يَخْرُجَ فيها الْيَهُودُ للقتَال، وَجَاءَ أحَدُ الْيَهُودُ الْهَاربينَ إلَى النَّبى عَلَيْه الصَّلاَةُ والسَّلام وَقَالَ لَهُ: إنَّكَ لَوْ أقَمْتَ بحصَارِكَ هَذَا شَهراً فَلَنْ يُؤثّر الحصارُ عَلَيهمْ فى شَىء، لأنّ عنْدَهُم شَرَاباً وَمَؤْناً فى سَراديب تَحْتَ الأرْضَ يَخْرُجُونَ إلَيهَا لَيْلاً يَتَزَوَّدُونَ وَيَشْرَبُونَ، وَيَسْتَكْملُونَ مَا يَنْقُصُهُمْ، وَيَعُودونَ إلَى حصنْهم.

وَنَصحَ ذَلكَ الْيَهُودىُّ الْمسلمينَ بأنْ يُحَاولوا مَنْعَ المأكل وَالْمَشْرَب عَنْ يَهُود الحصْن، فإنْ فَعلُوا ذلكَ ظَهَر الْيَهُودُ وأمكَنَ للْمُسْلمين

اصْطيادُهُم. فَأمَرَ النَّبى ﷺ بقَطْعِ الْمَاء عَنِ الْيهُود، فَجُنَّ جُنُونُهُمَ وَخَرجُوا للْقتَال، وكَانَ قَتَالاً عَنيفاً شَديْداً تَغَلَّب فيه الْمسْلمُونَ، وَقَتَلُوا الْكَثيرَ منَ الْيَهود، وَاسْتَوْلُوا عَلَى الْحصْن.

وَمنَ مكَان إلَى مكَان كَانَ الْيَهُودُ يَنتقُلونَ، وَبَعْدَ الاسْتيلاَء عَلَى حصْن «الزبيرْ» تَجمَّع الْيَهُودُ فى حصْن آخرَ لاَ يَقلُّ عَنْهُ مَنَاعَةً وَقُوَّةً، فَحَاصَرَهُ الْمُسْلمُون كَمَا حَاصَرُوْا غَيْرهُ منْ قَبْل، ولَمَا طَالَ الْحصَارُ نَزلَ قَائدُ الحصْن الْيَهُودىُّ وَطَلبَ الْمُبَارزَةَ فَقَاتَلَهُ وَاحدٌ منْ فرْسَانَ الْمُسْلمينَ، ثُمَ نَزل قَائدٌ آخرَ فَبَارزَهُ الْمُقَاتلُ الْمُسْلَمُ فَقَتَلَهُ، وكَان الْمُقَاتلُ الْمُسْلمُ صَحَابيًّا جَليلاً اسْمُهُ «أبو دُجَانة».

وَهَاجَم الْمُسْلمُونَ الْحصْنَ، فَدَارَ قتَالٌ مَرير قُتلَ فيه كَثيرٌ منَ الْيَهُود، وَفَرَّ منْ بَقىَ منْهمُ إلَى حصْن آخرَ، كَانوا يُسَمُّونَهَ حصْن «النّزار»، وكَانَ حصنْاً منيعاً اطْمَأنوا فيه أنّ الْمُسْلمين لَنْ يَسْتَطيعُوا اقتحامهُ لأنَّهُ يَقَعُ عَلَى جَبَلٍ عَال.

حَاصَرَ الْمُسْلمون حصْنَ «النّزار» ولَكنَّهمُ وَجَدوُا صُعُوبَةً فى اقْتحَامه لأنّ الْيَهُودَ لَمْ يَجْرُءُوا عَلَى الخُرُوجِ للْقتَال فَقَاتَلوا منَ دَاخل الْحصْن، بإلْقَاء الْحجَارة، وَالتَّراشُق بالنِّبَال.

فَلَمَا اسْتَعْصَى عَلَى الْمُسْلمينَ اقْتحَامُ الْحصْن أمَرَ رَسُولُ اللّه ﷺ بنصْبَ آلات الْمَنْجَنيق، فَاسْتَخدْمَهَا الْمسْلمونَ فى إلقَاء الْقَذَائف

الْقَوِيّة الّتى أحْدَثَتْ الخَلَل فى جُدْرَان الحصْن، ممَّا كَانَ سَبَباً فى سهولَة اقْتحَامه، وَدَارَ الْقتَالُ فيه عَلَى أشَدِّ مَا يكُونَ الْقتَالُ، وهُزِمَ الْيَهُودُ شرَّ هَزِيمَة.

تَرَكَ الْيَهُودُ نسَاءَهُم وذُرِّيَّاتهمْ، وَفَرُّوا منْ حصْن إلى حصْن، فَفَرَضَ الرسُولُ ﷺ عَلَى كُلِّ الحُصُون حصَاراً وَاحداً شَديداً، اسْتَمَر مَا يَقْرُبُ منْ خَمْسَة عَشْرَ يَوْماً، وَالْيَهُودُ لا يَخْرُجُونَ منْ حُصُونهم خَوْفَاً وَرُعْباً، فَلَمّا رَأوا الْمُسْلمينَ يُعدُّونَ آلات الْمَنْجَنيق ازْدَاد خَوفُهُمْ وَاشْتَدَّ رُعْبُهُم وَطَلَبُوا الاسْتسْلامَ لأيدى الْمُسلمين.

خَرَجَ زُعَمَاءُ الْيَهُود منَ الْحُصُون وَوَضَعُوا شُرُوطاً للأمَان: أن يَخْرُجْ مَنْ بَقَى منْهمُ حَيّاً منْ خَيْبَرَ، تَاركينَ أرْضَهُمَ وأمْوَالهم، وَمَا يَدَّخرُونَه منْ ذَهَب وكُلَّ شَىء يَحُوزُونَهُ، إلا ثَوْباً واحداً عَلَى ظَهْرِ كُل منْهُم.

وَافَقَ رَسُولُ اللّه ﷺ عَلَى طَلَب الْيَهُود، فَسَلَّمُوا إلَيْه الْحُصُونَ، وَخَرَجَ مَنْ بَقى من الْيَهُود تاركين خَيْبَرَ. فَأمَرَ رَسُولُ اللّه ﷺ بتَقْسيم الْغَنَائم وَالأرْض عَلَى الْمُسْلمينَ، وكَانَت الْغَنَائمُ كَثيرةً، تَأمَّلَهَا الْمُهَاجرُونَ وَقَرَّرُوا أنْ يَردُّوا إلى الأنْصَار منَحَهُمْ التى منَحُوهُم إيَّاهَا فى بدايَة أيَّام الْهجْرة.

لَقَدْ صَارَ لِلْمُسْلِمِينَ أَرَاضٍ وَنَخِيلٍ فِي خَيْبَرَ، وَعَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ عَلَى قُوَى الْغَدْرِ وَالْخِيَانَةِ بَيْنَمَا كَانَ جَزَاءُ مَنْ بَقِيَ مِنْ يَهُودِ خَيْبَرَ هُوَ التَّشْرِيدَ وَالنَّفْيَ إِلَى بِلَادٍ بَعِيدَةٍ.

وَبَقِيَ يَهُودُ فَدَكَ، وَهِيَ قَبِيلَةٌ يَهُودِيَّةٌ تَبْعُدُ دِيَارُهَا عَنْ خَيْبَرَ بِمَسَافَةٍ كَبِيرَةٍ، عَلِمَتْ بِمَا حَدَثَ لِأَهْلِ خَيْبَرَ فَقَذَفَتْ الْأَخْبَارُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَبَعَثُوا مَبْعُوثاً مِنْ عِنْدِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ الْمَبْعُوثُ لِلنَّبِيِّ: إِنَّ أَهْلَ فَدَكَ يَدْعُونَكَ لِلْمُصَالَحَةِ، عَلَى أَنْ يُعْطُوا النِّصْفَ مِنْ فَدَكَ لِلْمُسْلِمِينَ.

وَوَافَقَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى دَعْوَةِ أَهْلِ فَدَكَ، فَكَانَتْ فَدَكُ لِلْمُسْلِمِينَ بِغَيْرِ قِتَالٍ، وَهَكَذَا كَانَ نَصْرُ اللَّهِ لِلْمُسْلِمِينَ، كَمَا وَعَدَهُمْ، وَصَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي كُلِّ مَا نَادَى بِهِ، وَمَا بَشَّرَ بِهِ مِنْ نَصْرٍ بَعْدَ نَصْرٍ.

غـزوة وادى القـرى

وَادى الْقُرَى، مكَانٌ كَانَ يَسْكُنُهُ الْيَهُودُ الّذينَ تَحالفَ مَعَهُم جَمَاعَةٌ منَ الْعَرَبِ عَلَى أنْ يَتَصَدُّوا لانْتشَار الإسلامِ مَهْمَا كَانَتْ تَضْحياتُهُم. ولَمّا فَرَغَ الْمُسْلمُونَ مَن يَهُودَ خيْبَر، رأى رَسُولُ اللّه ﷺ أنْ يَذْهَب الْمُسْلمُونَ إلَى وَادى الْقُرَى ليَدْعُونهم إلى الإسْلاَم.

عَلمَ يَهُودُ وَادى الْقرَى بمَا أرَادَهُ النَّبىّ ﷺ، وَاسْتَعَدُّوا لقتَال الْمُسْلمينَ، وَمَعَهُمْ جمَاعة منَ الْعَرَب، وَتَحَصَّنُوا فى حُصُونهم، فَلَمّا وَصَلَ جَيْشُ الْمُسْلمين إلى وَادى الْقرى اسْتَقبَلهُم الْيَهُودُ وَمَنْ مَعَهُمْ، فَتَرَاشَقُوا بالنِّبَال، فَاسْتُشْهدَ أحَدُ الْمُسْلمين.

أعَدَّ رَسُولُ اللّه ﷺ أصْحَابَهُ للْقتَال وَصَفّهُم، ثُمَّ دَعَا الْيَهُودُ وَمَنْ مَعَهُمْ إلى الإسْلام، فَأَبَوْا قَائلين لَنْ نكُونَ مثْلَ يَهُود خَيْبَرَ، وَستكونُ الْغَلَبَةُ لَنَا ثُمَّ برَز أحَدُ قَوّادهم قَائلاً: مَنْ يُبَارزُنى؟ فَخَرَجَ إلَيْه الزُّبير ابْنُ الْعَوّام، وَبَعْدَ قَليل منَ الْمُبَارزَة أطَاحَ به الزُّبَيرُ وَقَتَله.

خَرَجَ يَهُودىٌ آخَرَ، وَقَالَ فى غُرُور: مَنْ يُنَازلُنى؟ فَخَرَجَ إلَيْه علىّ بْنُ أبى طَالب رضي الله عنه، وَدَارَ بَيْنَهُمَا الْقتَالُ فَتْرَةً، ثُمَّ أطَاحَ به علىٌّ رضي الله عنه وَقَتَلَهُ، فَخَرَجَ يَهودىٌ آخَرُ يَطْلُبُ الْمبَارزة.. وَهكَذَا حتَّى قَتَلَ

الْمُسْلِمُون منْهُم ثَلاثَةَ عَشَر رَجُلاً، خَرَجُوا لِلْمُبَارَزَة واحداً تلْوَ الآخَر، وكُلَّما قُتِلَ مِنْهم رَجُلٌ دَعَا الْمُسْلمونَ مَنَ بقَى لَلإسْلام فلا يَسْتَجيبُوا.

أصرَّ الْيَهُودُ عَلَى رَفْض الاسْتجَابَة لدَعوَة الإسْلاَم، فَهَاجَمَ جَيْشُ الْمُسْلمينَ وَادى الْقُرى، وَاسْتمرَّ قتَالُهُم يَوْماً وَلَيْلَةً حَتَى اسْتَسْلَمَ مَنْ فَيهاَ بَعْدَ أنْ قُتلَ منْهُم الكَثير، وفَتَح الْمُسْلمُونَ وَادى الْقرى، وَقَدْ غَنمُوا الْكَثيرَ مِمَّا أفَاءَ اللّهُ عَليْهم منَ الأمْوَال والمَاشية، وَقَدْ أقَامَ النَّبى عَليْه الصّلاةُ وَالسَّلام فى وَادى الْقرَى أيّاماً وزَّع فيها الغَنَائم عَلَى الْمُسلمين جَميعاً.

نَصَرَ اللَّهُ الْمُسْلمينَ فى وَادى الْقرَى، وعلم بذلك يَهُودُ قَبيلَة «تَيْمَاءَ» الّتى تَبْعُدُ عَنْ وَادى الْقرى، وَقَد دَبَّ الرُّعْبُ فى قُلوبهم عندمَا بَلَغَتهُم أنْبَاءُ هَزيمة إخْوَانهم فى خيْبَرَ، واسْتسْلامُ يَهُودَ فَدْكَ، وأخيراً وَادى الْقرَى، فَبعثُوا إلَى الْمسْلمين من تلْقاء أنْفُسهُم، يَطْلُبُونَ الصُّلْحَ فَقَبلَ الرسُولُ ﷺ مَا دعُوا إليْه. وَعَادَ النَّبى والْمُسْلمُونَ إلَى الْمَدينَة، وَأصْبَحَ مَا يَشْغَلُ بَالَ رَسُول اللّه ﷺ هُمْ هَؤُلاء الأعْراب الّذينَ يَسْطُونَ عَلَى الْمُسْلمين أحْيَاناً وينْهبُون أمْوَالَهُم ويَسْلُبونَ أشْيَاءَهُم.

ولكنَّ جَيْشَ الْمُسْلمينَ كَانَ قَد اقْتَرَبَ منْهُمْ ، فَصَفَّ رَسُولُ اللَّه ﷺ أصحَابَهُ للْقتَال، وَأعْطَى أبَا بكْر الصِّدِّيق رَايَةَ الْمُهَاجرين، وَسَعْدَ بْن عُبادة رايَةَ الأنْصَار، وَبَدأ الْفَريقَان يَتَرَاشَقَان بالنِّبَال قَبْلَ الْتحَام الْجَيْشَيْن للْقتَال.

اسْتَمَرَّ التَّرَاشُقُ بالنِّبَال بَعْضَ الْوَقْت، ثُمَّ أمَرَ النَّبى ﷺ الْمُسْلمين بالْهُجُوم عَلَى أعْدَائهم هَجْمَةَ رَجُل وَاحد، فَارْتَبَكَ جَيْش الْمُشْركينَ، وكانت الْهَزيمَةُ من نَصيبهم فَقَتَلَ الْمُسْلمونَ منْهمْ عَدَداً كَبيراً، كما أسَرُوا النِّسَاءَ وَعَدَداً غَيْر قَليل من الرِّجَال. وَغنموا أمْوَالَهُم وَأنْعَامَهُمْ.

وتَزَوَّجَ الرَّسُولُ ﷺ بنْتَ الْحَارث وَسَمَّاهَا جُوَيْريَّة، فَعنْدَ ذَلكَ أسْلَمَ بَنُو الْمُصْطَلق جَميعاً وَمَكَثَ الرَّسُولُ ﷺ مَع أصْحابه فى بَنى الْمُصْطَلق أيَّاماً بَعْدَ الْمَعْركَة. وَبَعْدَ عَام وفى نَفَسَ الشَّهر عَلمَ الرَّسُولُ ﷺ أنَّ قَبيلَة بنى بكْر يَنْوُون لَهُ عَلَى الشَّرِّ.

لَمَّا عَلمَ النَّبىُّ ﷺ بخَبَر بَنى كَلْب بَعَثَ فى طَلَب عَبْد الرَّحْمَنَ بْن عوْف فَلَمَّا جَاءَ أقْعَدَهُ النَّبى ﷺ بَيْنَ يَدَيْه، وعَمَّمَهُ بيَده، ثُمَّ أوَصاهُ بأحْسَن الأمُور فى الْحَرْب، بأنْ يَدْعُوهُمْ إلَى الإسْلاَمِ أوَّلاً أوْ بإعْطَاء

الْجزْيَة ثانياً فَإِنْ لَم يسْتَجيبوا للْكَلام وأرادُوا الْحَرْبَ، فلتكُنَ الْحَرْبَ.

خَرَجَ عَبدُ الرَّحْمَنِ بْن عَوْف يَقُودُ عَدَداً منْ فُرسْان الْمُسْلمين قَاصدين بَنى كَلْب، فَوجَدَهُمْ قَدْ أعَدُّوا أنْفُسَهُم للقتَال، فَقرأ عَلَيهم بعض آيات مَنَ الْقُرآن الْكريم وأسْمَعَهُمْ قَوْل رَسُولَ اللّه ﷺ، واسْتمر عَلَى ذَلكَ ثَلاثَةَ أيَّام، فَأسْلَمَ رأسُهم وكبيرهم، فَتبعَهُ بَعْضُ الْقَوْمُ وأسْلَمُوا. وبَعَضٌ منْهُم رَفَضُوا الإسلاَم ورَضُوا بإعْطَاء الْجزْيَة.

وتَزَوَّجَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنَ عوْفُ تماضرَ بنْتَ الأصْبَغِ، بنْتَ رئيس سيد قبيلة بَنى كَلْب، وَدَخَلَ بهَا فى الْفَتْرَة نَفْسهَا منْ شَهْر شَعْبَانَ، ولَمْ تَنْتَهى الْحرْبُ بإسلاَم بنى كلب، بل كانَ هُناكَ قَوْمٌ منْ بَنى سعْد بْن بكْر لاَ يزالُونَ عَلَى الشّرْك، ويَخَافُونَ أنْ يحيق بهم الْخَطَر بَعْدَ مَا رأوهُ من انتصارات الْمُسْلمينَ. فَرَاحُوا يُفكّرُونَ فى طَريقَة يُبْعدونَ بهَا خَطر الإسْلاَم والْمُسْلمين عَنْهُم.

رَأى بَنوُ سَعْد أن الْيَهُودَ يُنَاصبُونَ الْمُسْلمينَ الْعَدَاءَ فَبَعَثُوا إلَيْهم ليَتَّفقُوا فيمَا بَيْنَهُمْ علَى إيذاء المسْلمينَ، وَالْعَمَل عَلَى عَرقلة سير الإسْلاَم، ووَصلَتْ أخْبَارْ هَذَا الاتِّفَاق، وأبعَادُ هَذه الْمُؤَامَرة إلى

رسُول اللَّه ﷺ فأمَرَ على بْنَ أبى طَالب أنْ يُعدَّ فرْقَةً قَويَّةً من الْمُسْلمين لقتَال بَنى سَعْد.

خَرَجَ علىٌّ رضي الله عنه ومَعَهُ مائَة رَجُل، وكَانَ أهَمّ أوامر رَسُول اللَّه ﷺ أنْ تَبقَى مُهمَّة هَذه الْفَرْقَةَ فى سريَّة تَامَّة، حتَّى تَنْجَحَ أهْدَافُهَا، فكَانَ علىٌّ رضي الله عنه يسيرُ بفرقَتُه بَاللَّيل فَقَطْ، فَإذَا أصْبَحَ الصَّباحُ اتَّخَذ لَهْ مَخْبأ وكَمَن فيه طُوَالَ النَّهَار.

وَفَجأةً ظَهَرَ اثْنَان منَ فُرْسَانَ بَنى سَعْد مَنْطَلقين علَى جَوَادَيْهمَا، فَأسرَهُمَا علىٌّ رضي الله عنه وعَلمَ منْهُمَا أنهُمَا مَبْعُوثَان إلَى يَهُود خيبرَ، كَمَا اعْتَرَفَا أنّ هُنَاك اتِّفَاقاً بَيْنهُم وبَين اليَهود، يقضى هَذَا الاتِّفَاقُ بأنْ يُمدُّوْهُمْ بالتَّمْر واَالسِّلاَح فى مُقَابل نُصرَتهم علَى الْمُسْلمينَ.

اسْتَدلَّ الْمُسْلمُونَ منَ الأسيرَيْن علَى مَوْضع تَجَمُّع قُوَّات بَنى سَعْد، وعَدَدهم، وأسْلحتهم، فقَرَّرَ علىٌّ رضي الله عنه، أنْ يُدَاهمَهُم وَهُمْ غَافلُونَ، فَأغارَ علَيْهم فَجأةً، وفرَّ مُقَاتلوُ بَنى سَعْدَ يَطْلُبُونَ النَّجَاةَ هَاربينَ إلَى الْجبَال بَعْدَ أنْ قُتلَ رَئيسهُم وَبَر بن عُلَيم.

كَانَتَ غَنائمُ الْمُسْلمينَ منْ بَنى سَعْد خَمْسُمائَةَ بَعير وَعدَّة آلاف منْ رُءُوس الغَنَم، وَسَبْعين أسير، فَلَمَّا عادَ فرْسَان الْمُسلمينَ إلى بَنى المصْطلق كَانَ النَّبىُّ ﷺ قَدْ عادَ إلى الْمَدينَة هَوُ وأصحَابه، وكَانَ بنو

الْمُصْطَلِقِ قَدْ أَسْلَمُوا فَاستَقْبَلُوا الْفُرْسَانَ اسْتِقْبَالاً حَسَناً.

وَصَلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَمَعَهُم الغَنَائِم وَالأَسْرى، وَلَكِنَّ الْيَهُودَ وَالْمشركِينَ يَبْغُونَ الشَّرَّ دَائِماً وَلاَ يتوَقَّفُونَ عَنْ إِيذَاء الْمُسْلِمِينَ والتآمُر ضِدَّهُمْ، وَالبَحْث عَنِ الْوَسَائِلِ الّتِي ينَالُونَ بِهَا مِنَ الإِسْلاَمِ وَالْمُسْلِمِينَ.

وفِي مكَان بَعِيد اسْمهُ وَادِى الْقُرى جَلَسَ الْمُشْرِكُونَ يتَّفقُونَ عَلَى أَنْ يَغْتَالُوا النَّبِى ﷺ، وكَانَ مُشركو قُرَيْش قَدْ عَلِمُوا بِهذه الْمُؤَامرَة فَبَعثُوا بَعْضِ كبَارِهِمْ إِلَى وَادِى الْقُرى لِلتَّعَاونِ مَعَهم فِى تَنْفِيذ مَا يتفقُونَ علَيْه.

وَاتَّفَقَ الْفَرِيْقَان عَلَى أَنْ يُرْسِلُوا إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرة عَدَداً مِنْ رِجَالِهِم ليندَسُّوا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا حَانَتْ لَهُمُ الفُرْصَة انْقَضُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ وَقَتلُوه، وبِذَلِكَ يكُونُوا قَدْ أَصَابُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَعَزَّ مَا لَدَيْهِم.

وَلَكِنَّ اللَّه يَعْصِمْ نَبِيَّهُ ﷺ وَيَحْفَظُهُ مِنْ كُلِّ مُؤَامَرة، وَفِى هَذه الْمَرَّة جَاءَ أَحدُ الْمُشْرِكِين وأبلغَ النَّبِىَ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ عَمَّا اتَّفَقَ عَلَيْه الْمُتَآمِرونَ، وعندَمَا حَضَرَ بَعْضُ الْمُشْرِكِين مِنَ وَادِى الْقُرى إِلى الْمدِينة تلَقَّاهُمُ الْمُسْلِمون وَقبضُوا عَلَيْهِم.

فَاعْتَرَفُوا بالْمُؤَامَرَة، وتَحَدَّثُوا بمَا تَمَّ بَيْنَ كُفَّار وَادى الْقُرى وكُفَّار قُرَيْش، كَمَا أخْبَرُوا عَنْ عَدَد قُوَّاتهم وأمَاكن تجَمُّعهم، فَأمَرَ رسُولُ اللَّه ﷺ أبَا بكْر الصِّديق رضي الله عنه بتَجْهيز قُوَّة منْ جَيْش الْمُسْلمين، وَالْخُرُوج بهَا لتأديب كُفَّار وَادى الْقرى.

وَاسْتَطَاعَ عَبْدُ اللَّه ورجَالُه أنْ يَقْتُلُوا أسيْراً وَمَن مَعهُ جَميعاً، ونَجَا الْمُسْلمُون منْ شَرّهَم، وَقَدْ جُرحَ أحدُهُم، وَهُو الّذى كَادَ أسيْر أنْ يَقْتُلَهُ، فلَمّا عَادُوا إلى رَسُول اللَّه ﷺ قَالَ لَهُمْ: لَقَدْ أنجَاكُم اللَّه منْ شرِّهم ولم تمْض أيَامُ حتّى أغَارَ عَلَى أطْرَاف الْمَدينَة بَعْضُ الْمُشْركين وَفَرُّوا هَاربين وكَانُوا منْ أعْرَاب يَمنَ وجبَار «بالفتح» فى أرْض غطَفَان.

خَرَجَ منَ الْمَدينَة رجَالٌ منَ الْمُسْلمين ليُتَابعُوا هَؤلاَء الأوْغَادَ، فَعلمُوا أنّ هُنَاكَ جَمْعاً كَبيراً تَجَمَّعُوا للإغَارَة عَلَى أطْرَاف الْمَدينة، فَكَلَّف النَّبىُّ ﷺ جَمْعاً منَ الْمُسْلمينَ بقيَادَة بَشير بْن سَعْد الأنْصَارى لصَيدهم فكَانُوا ـ كَالعَادة ـ يسيرونَ باللَّيلَ ويَختبئونَ بالنَهار، حَتّى انْقَضُّوا عَلَى تَجمُّع الْمُشْركين وفتكُوا بهم فَقَتَلُوا منْهُم الْكَثيرَ وَفَرّ البَاقُون.

غَنمَ بَشيرُ بْنُ سَعْدَ نعَماً كَثيرةً وأمْوَالاً، وأسَرَ ثَمانيَةَ رجَال وعَادَ

بهم إلى الْمَدينةَ، وكَان هَؤُلاَء الثّمَانية منْ أشْرَاف الْقَبَائل، فَبعَثَتْ قَبَائلُهم بفديتهم إلى الْمَدينَة، ولَكنّ الرِّجَال الثَّمانيَةَ رَفَضُوا الْعَوْدَةَ إلى ديارهم، وأسْلَمُوا وعَاشُوا مَعَ الْمُسْلمين فى المدينة.

وَهكَذَا كَانَتَ انْتصَارَاتُ الْمُسْلمين عَلَى الأعْدَاء مُتَوَاليَةً بإذْن اللّه سُبْحَانَهُ وتَعَالَى مُنْذُ مُعَاهدَةَ الْحُدَيْبيَة، فَلَمَّا أهَلَّ شَهْرُ ذَى الْقعْدَة منَ الْعَام التالى بَعْدَ الْمُعَاهَدَة أمرَ رَسُولُ اللّه ﷺ أصْحَابَهُ أنْ يعدُّوا أنْفُسهُم لقَضَاء عُمْرَتهم، وألاَّ يتخلَّفَ أحَدٌ مِمّنْ شَهدُوا صُلْحَ الْحُدَيْبية.

وَخَرَجَ الّذينَ شَهدُوا الصُلْحَ، لَمْ يَتخَلَّفْ منْهم إلاّ الّذين اخْتَارَهُم اللّه فَاسْتُشْهدُوا فى الْمَعَارك السَّابقَةَ، وَخَرجَ آخَرُونَ يَقْصدُونَ مكَّة، فَلَمّا رأى ذَلكَ كُفَّار قُرَيْش أفْسَحُوا لَهُم الطَّريقَ حَسْبَ مَا تَعَاهَدُوا عَلَيْه، وكَانَ رَسُولُ اللّه ﷺ عنْدَ دُخُوله مكّة رَاكبًا نَاقَتَهُ الْقَصْوَاءَ، وَالْمُسْلمُونَ حَوْلَه وَسُيُوفُهُمَ فى أغْمَادها.

وَعنْدَ دُخُول مكَّةَ ارْتَفَعَ صَوْتُ الْمُسْلمينَ بالتَّلْبيَة وَالتّكْبير: اللَّهُ أكْبَرُ اللَّهُ أكْبَرُ.. فَلَمْ يَحْتَملُ الْمُشْرِكونَ رُؤْيَةَ ذَلكَ الْمَشْهَد فَخَرَجُوا إلَى جبَل فى شَمَال الْكَعْبَة يُقَالُ لَهُ «قُعَيْقعَان» حَتَّى لاَ يَرُوا الْمُسلمين وهمْ يَطُوفُونَ بالْكَعْبَة.

طَافَ النَّبىُّ ﷺ بالْكَعْبَةِ هُوَ وأصْحَابُه، ولَمّا فَرَغُوا من الطَّوَاف سَعَوْا بَيْنَ الصَّفَا والمَروةَ ، ووَقَفَ النَّبىُّ ﷺ عندَ الْمَرْوَة وقَالَ: هَذَا الْمنحرُ، وكلُّ فجَاجِ مكَّةَ مَنْحَرُ. . فَنَحَر عنْدَ المَرْوة وحَلَقَ. . وفَعَلَ الْمُسْلمُونَ مثْلَ مَا فَعَلَ. . وأقَامَ النَّبىُّ وأصْحَابُه بمكَّة ثَلاثَةَ أيّامٍ، وغَادَرُوهَا فى الْيَوْمِ الرّابعِ حَسَبَ المعَاهَدَة.

يَذْكُرُ التَّاريخُ هَذه الْعُمْرةَ باسْم «عُمْرةُ الْقَضَاء» ، لأنّهَا وَقَعَتْ بَعْدَ مُعَاهَدَة الْحُدَيْبيَة، وحَسَبَ بُنُودها. . وكَانَتَ بدَايَةً لفَتْحٍ كَبيرٍ للْمُسْلمينَ، كَمَا وَرَدَ فى قَوْله تَعالَى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبينًا ۝١ لِيَغْفرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ من ذَنْبكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتمَّ نعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صرَاطًا مُّسْتَقيمًا ﴾ .

[الفتح : ١-٢]

صَدَقَ اللهُ العَظِيْمُ.

***

غـزوة مـؤتـة

بَعَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ الْحَارثَ بْن عُمَيْر الأزْدىّ بكتَاب إلى عَظيم بُصْرَى ببلْدَة فى الشَّام تُسَمَّى «بَلْقاءَ» يَدْعُوهُ فيه إلى الإسْلاَم، وكَانَ ذلكَ فى السَّنَة السَّادسَة بَعْدَ الهجْرَة، وبَيْنما الْحَارث فى طَريقه لأدَاء مُهمَّته تعرّض لَهُ مالَمْ يكُنْ فى الحسبان.

إذْ خَرَجَ عَلَيْه فى الطَّريق شُرَحْبيلُ بْن عَمْرُو الْغَسَّانىّ هُوَ وَرجَالُهُ. وكَانَ قيْصَر الرُّوم قَدْ جَعلهُ قَائداً عَلَى الْبَلْقَاء فَأمَرَ شرَحْبيلُ رجالَهُ، فأوْثَقُوا الْحَارث بالْحَديد وأخَذُوه إلَى مُعَسْكَرهم، وَهُنَاكَ أمَرهُمْ بقَتْله. هَذَا ولَمْ يُقتل للنّبىّ ﷺ رسولاً غيره.

فَلَمَّا نُقلَتْ أخْبَارُ مَقْتَل الْحَارث إلَى الرَّسُول ﷺ حَزنَ حُزْناً شَديداً، ولأنَّ قَتْل السُّفَرَاء والرُّسُل منْ أشَدَّ الْجَرَائم، انْتَظَرَ الرَّسُولُ ﷺ حتّى فَرَاغه منْ أعْدَائه الْيَهُود وَغَيْرهم، ثُمّ أمَرَ بتَجْهيز جَيْش قَوىّ لمُحَاسَبَة هَؤُلاَء الظَّالمين عَلَى مَقْتَل الْحَارث.

عَيَّنَ رَسُولُ اللَّه ﷺ زَيْدَ بْن حَارثَة قَائداً لجَيْش الْمُسْلمينَ وَمنْ بَعْده جَعْفَرَ بْنَ أبى طَالب وَمَنْ بَعْده عبد اللّه بْن رَوَاحَة وكَانَ عَدَدُ

الْجيشِ ثَلاَثَة آلاَف مُقَاتل. وَطَلَبَ منْهُمُ الرَّسُولُ ﷺ أن يَدْعوهم إلَى الإسْلاَمِ أوَّلاً فَإنْ لَمْ يَسْتَجيبُوا قَاتَلُوهُمْ.

وكَانَ الرَّسُولُ ﷺ يُوصيهِمْ قَبْلَ رَحيلهم قَائلاً: « **اغْزُوا بِسْمِ اللّه فى سَبيلِ اللّه، وَلاَ تغْدُرُوا، ولا تقْتُلُوا وليداً أو امرأة، وَلاَ مسناً وَلاَ تَهْدمُوا بِناءاً** » ثمَّ تحَرَّكَ الْجَيْشُ الإسْلاَمىّ نَحْوَ أعْدَاء اللّه..

وبَعْدَ مَسيرَة أيَّام منَ الْمَدينَة وَصَلَ جَيْشُ الْمُسْلمينَ إلَى منْطقَة من أرْضَ الشَّام تُسَمَّى «مُعَانَ» فَعَسْكَرُوا بها للرَّاحَة، ثُمَّ جَاءَتهُمْ أخْبَارٌ منْ رَجَال اسْتطْلاَعهم بأنَّ هرَقْلَ قَيْصَر الرُّوم جَهَّزَ جَيْشَاً عَدَده مَائةَ أَلْف منَ الروم.

وأنهُ قَدْ أعدَّ نَفْسَهُ تَحسُّباً لقُدُوْم جَيْش الْمُسْلمينَ وَقَدْ انْضَمَّ إلَى قُوَّاته مائَة أَلْف آخَرِيْنَ منَ الْمُشركينَ منْ قَبَائلِ لَخْمٍ وجُذَامٍ.

وأصبح جيشُ الْكُفَّار مائتى أَلْف رَجل.

جَلَسَ قُوَّادُ الْجَيْش الإسْلاَمىّ يَتَشَاوَرُونَ فيمَا بَيْنَهُمْ. فَقَالَ أحَدُهُمْ: لَمْ يكُنْ فى حسَابنَا أنْ نُقَابلِ مثل هَذَا الْعَدَد منْ جَيْش الأعْدَاء. وَقَالَ آخر: ونحْنُ فىْ بلد وأرْض بَعيدَة عن الْمَدينَةَ الْمُنَوَّرة، فَلاَبُدَّ أنْ نفكِّرَ جَيِّداً قَبْل أن نَخوض الْمَعْركَة.

وَبَعْدَ لَيْلَتَيْنِ مِنَ التَّشَاوُرِ قَالَ أَحَدُهُمْ: نَبْعَثُ إِلَى رَسُولِ اللّه ﷺ نُخْبِرُهُ بِعَدَدِ عَدُوِّنَا، فَإِمَّا أَن يُمِدَّنا بِالرِّجَالِ أَوْ يأمُرُنَا بِالرُّجُوعِ. ولكنَّ عبد اللّه بْن رَوَاحَةَ عارَضَ هَذَا الرَّأى، وَرَاحَ يحُثُّ النَّاسَ وَيُشجِّعُهُمْ عَلَى الْقِتَالِ مَهْمَا كَانَ عَدَدُ الأعْدَاءِ وَقُوَّةِ سِلاَحِهم مُتَمَنِّيًا الشَّهادَةَ فِى سَبِيلِ اللَّه.

فَتَعَاهَدَ الْجَمِيعُ عَلَى الْقِتَالِ حَتَّى النَّصْرِ أو الشَّهَادَةِ فى سَبِيلِ اللَّه. ثُمَّ تَحَرَّكَ الْجَيشُ الإِسْلامِىُّ نَحْوَ أَرْضِ الْعَدُوِّ حتى نَزَلُوا مُؤْتَةَ وَعَسْكَرُوا بِهَا وَهُنَاكَ شَاهَدُوا عَن قُربْ جُمُوعَ هِرَقْل كَأَنَّهَا أمواج الْبحرِ، وَذَلِكَ بِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ.

اسْتَعَدَّ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ للْقِتَالِ، وَاتَّخَذُوا مَوَاقِعَهُمْ. ثُمَّ صَرَخَ هِرَقْل فِى رِجَالِه يأمُرُهم بِالتَّقَدُّمِ للْقِتَالِ، فَلاقَاهُم جَيْشِ المسْلِمِينَ فِى مُؤْتَةَ. وكَانَتْ مَعْرَكَةً عَجِيبَةً شَرِسَةً، وَذَلِكَ لأنَّ ثلاثَة آلاَف مُقَاتِلٍ يُحَارِبُونَ مائَتَىْ ألفٍ، فَكَانَ جيشُ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُ قِتَالاً مَرِيراً مُتَسلِّحاً بِالإِيمَانِ.

وكَانَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَحْمِلُ الرَّايَةَ وَفِى مُقَدِّمَةِ الْمُقَاتِلِينَ يُقَاتِلُ بِضَرَاوَةٍ بَالِغَةٍ وَبَسَالَةٍ وَشَجَاعَةٍ نادرةٍ. وظَلَّ يُقَاتِلُ وَيُقَاتِلُ فِى صِراعٍ

رهيبٍ. حتى أصابَتْه عِدَّةُ رِماحٍ فَسَقطَ شَهيداً فِى سبيلِ اللَّه.

فَأخَذَ الرَّايَةَ جَعْفَرُ بْن أبى طَالب، وتَقَدَّمَ الْمُقَاتلينَ وَهُوَ يَقُولُ اللَّهُ أكْبَرُ اللَّهُ أكْبَرُ، واستمر يُقَاتلُ حتى قُطِعَتَ يَدُهُ اليُمْنَى، فَأمْسَك الرَّايَةَ بيَده الْيُسْرَى، حتى قُطعَتْ هِىَ الأخْرَى، فَاحْتَضَنَ الرَّايَةَ بَعَضُدَيْه واسْتَمَرَّ يُقاتلُ حتى اسْتُشْهِدَ.

فَأخَذَ الرَّايَةَ بَعْدَهُ عَبْدُ اللّه بْن رَوَاحَةَ، وتَقَدَّمَ بهَا وَرَاحَ يُقَاتلُ فِى شَجَاعَة لَيْسَ لَهَا نَظَير مثْلُهُ مثْل كُل فَرْد منْ جيش الْمُسْلمينَ، حتى اسْتُشْهِدَ رضي الله عنه. فَأسرعَ رَجلٌ منَ الْمُسلْمين يَحْملُ الرَّاية قَائلاً: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلمين: اخْتَارُوا رَجلاً منْكُمْ يَحملُ رَايَتكُمْ. فَقَالُوا: أنْتَ يَا ثَابتُ بْن أرْقَم. فَقَال لَهُمْ: مَا أنا بفَاعلٍ، فَاخْتَارُوا رَجُلاً منْكمْ.

فَأشَارُوا إلَى خَالد بْن الْوَليد، فَأسْرَعَ يَحْملُ الرَّايَةَ وَيَتَقَدَّمُ الصُّفُوف ليُدير القتَالُ فِى ضَرَاوَة بَالغَة. وفِى ذَلكَ الْوَقْتُ كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فِى الْمَدينَة وَعَيْنَاهُ تَذْرُفَان الدُّمُوع بَعْدَ أنْ عَلمَ مَا حَدَثَ فِى مُؤْتَة وذَلكَ: بَوحْى منَ اللَّه. وكَانَ يَقُولُ: « **أخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأصيب، ثُمَّ أخَذهَا جَعْفَرٌ فَأصيب، ثُمَّ أخَذَهَا ابْنُ رَوَاحَةَ فَأصيب، ثُمَّ أخَذَهَا سَيْف اللَّه وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْه** ».

أدارَ خَالدُ بْن الْوليد الْمَعْركَةَ ببَرَاعَة فَائقَة ونُبُوغ حَرْبى مُتَقَدّم. وكَانَ كلُّ هَمِّه أنْ يَخْرج من الْمَعْركة بأقلِّ الخَسَائر الْمُمْكنة لأنَّه كَان منَ الْمُسْتَحيل أنْ يَصْمُد جيْشُ الْمُسْلمينَ الصَّغير أمَامَ أمْوَاجَ الرُّوم الْكثيفة. فَأرَادَ خَالدٌ أنْ يَتم ذلكَ بحيلَة تَحْفَظُ كَرَامَةَ الْمُسلمين.

وَاسْتَطَاعَ خَالدٌ أنْ يَصْمُدَ بجَيْشه أمَامَ الأعْدَاء ويُقَاتلُهُم طُوَالَ النَّهار. فَلَمَّا أتَىْ اللَّيْلُ راحَ يُخَطِّطُ لخُدْعَة حَرْبيَّة تُلْقى الرَّعبَ وَعَدَمَ الثَّقَة فى قُلُوب الرُّومَان حَتى يَتَرَاجَعوا دُونَ أنْ يُفكِّرُوا فى مُطَارَدة الْمُسْلمينَ.

اجْتَمَعَ خَالدٌ مَعَ قُوَّاد جَيْشه وَرَاحَ يَشْرَحُ لَهُمْ خُطَّتَهُ ومكيدَتَهُ الْحَرْبيَّة، وَحَدَّد لهُمْ مَهَامَّهُمْ فى الصَّبَاح، وَطَلَبَ منْهُمُ الالْتزَام وَتَنْفيذهَا بدقَّة، فَإنْ نجَحَتْ كَانت الْخَلاَص لجَيْش الْمُسلمين من جيوش الرُّوم الْكَبيرة.

عَبَّأ خَالدٌ جَيْشَهُ منْ جَديد، وَفى الصَّبَاح غَيَّرَ مَوَاقعَهُمْ، إذْ جَعَلَ مَنْ كَانَ فى الأمَام فى الْخَلْف، وَمَنْ كَانَ عَلَى الْيَمين جَعَلَهُ عَلَى الْيَسَار. وعندَمَا اكْتشَفَ الرُّومَان تَغيُّرَ حَالَ الْمُسْلمينَ تَهَيَّأ لَهم أنّ عَدَدَهُمْ قَدْ زَادَ بضْعَ آلاف أخْرَى وَظنّوا أنّ هُنَاكَ مَدَداً أتَى إلَيْهم منَ

الْمَدِينَةَ فَخَافُوا وَرُعُبوا رُعْباً شَدِيداً .

أَبْلَغَ قُوَّادُ الرُّومَانِ هِرَقْلِ بوَضْعِ جَيْشِ الْمُسْلِمينَ الْجَديد . وَقَالُوا : لَقَدْ أَتَى لَهُمْ مَدَداً وَلا نَعْرِفُ خُطَّتهم بَعْدُ ، فقَالَ هِرَقْلُ : لاَ تُقْدِمُوا عَلَى عَمَلٍ يُقَلِّلُ مِنْ شأننَا ، وإلاَّ كَانَت الغَلَبَةُ لَهُمْ . فَإِنْ كَانَ لاَبُدّ مَنْ التَّرَاجُعِ فَلا بأس فَلْنَتَرَاجَعْ وَاجْعَلُوا فِرْقَةً تناوِشُهُم أَثْنَاءَ ذلكَ .

رَأى جَيْشُ الْمُسْلِمينَ حَرَكَةً غَيْر عَادِيَّة فِى جُيُوش الرُّومَان فَاسْتَعَدُّوا لَلْقِتَال ، وَتَنَاوَشُوا سَاعَاتَ . وَكَانَ خَالدٌ بْنُ الْوَلِيد فِى ذَلَك الْوقْت يُنَفِّذُ خُطَّتَهُ إِذْ جَعَلَ فِرْقَةً مِنْ جَيْش الْمُسْلِمين تتَرَاجَعُ بِبُطْء غَيْر مَلْحوظ ، فِى حِين يُحَرّك فِرْقَةً أخرى وكَأَنَّهَا تَتقَدَّم لِمَوَاقعَ جَدِيدَة .

رأى ذَلكَ قُوَّادُ الرُّومَان ، فَظَنُّوا أَنَّ جَيْشَ الْمُسْلِمينَ يَخْدَعُهُم ، وَيُدَبِّرُ لَهُمْ خُطَّةً لسَحْبِهِم إِلَى قَلْب الصَحْرَاء للْقَضَاء عَلَيْهِمْ ، فَثَبَتُوا فِى أَمَاكَنَهِمَ قَليلاً ثمَّ رَاحَتْ فرقُهُم هِى أَيْضَاً تَتراجَعُ للْخَلْفَ خَوْفَاً مِنْ مكيدَة قَدْ تَسُؤوهُمْ . وظَلَّتْ هكَذَا حَتَّى رَجَعَتْ جَيُوشُهم جميعاً تَارِكينَ أَرْضَ الْمَعْرَكَة .

فَرِحَ جَيْشُ الْمُسْلِمينَ بِنَجَاحِ خُطَّتِهِمْ وَانْسحَاب جُيُوش الرُّومَان مِنْ أَرْضَ المَعْرَكة . فأمرَ خَالدُ رجَاله بَجَمْع شُهَدَاء الْمُسْلَمِينَ مِنْ أَرض

الْمَعركَة فكَانُوا اثْنا عَشَر رَجُلاً بَيْنَمَا كَانَ هناكَ الْمِئَاتُ مِنَ الرُّومَانِ قَتْلَى.

كَانَ مِنْ بَيْن شُهَدَاء الْمُسْلمينَ زَيْدٌ وَجَعْفَرٌ وَعَبْدُ اللَّه منْ حَاملى الرَّايات. وكَانَ زَيدٌ قَدْ أصَابَتْهُ عدَّةُ رِمَاحٍ وَجَعفَرٌ شَاهدُوا فى جَسَده بضْعاً وَتسعينَ طَعْنَةً وَرَمْيةً بالرُّمح ، وَعَبْدُ اللَّه أصَابَتْهُ عدةُ طَعَنَاتٍ، ورَغْمَ ذَلكَ كَانُوا يُقَاتلون حَتَّى آخرِ قطْرَةٍ منْ دمَائهمْ.

فَلَمَّا عَلمَتْ قَبَائلُ الْعَرَب فى أنْحَاء الشَّام عَنْ نَتيجَة هَذه الْمَعْركَة تَعَجَّبُوا وَدُهشُوا كَيْفَ يَقفُ جَيْشُ الْمُسلمين الصَّغيرَ أمَامَ جُيُوش الرُّومَان أكْبَر وَأعْظَم قُوَّة عَلَى الأرض فى ذلكَ الْوَقْت؟ ؛ وكَيْفَ خَرَجُوا منْها سالمين؟!!

وَاجْتَمَعَ الْمُشْركُونَ منْ قَبَائلِ الْعَرَب يَتَبَاحَثُونَ فى أمْر هَذه الْمَعْركَة. فَتَأكَّدُوا أنَّ النَّصْرَ منْ عنْد اللَّه وَأنَّه حَامى الْمُسْلمينَ وَمُؤَيّدهُمْ، وَأنَّ مُحَمّداً رسُول اللَّه حَقّاً. فَأسْلَمَتْ قَبيلَةُ بَنى سَليم وَغَطَفَان وَذُبْيَان وَغَيْر ذَلكَ منَ الْقَبَائلِ الأخْرَى.

وَعَادَتْ قُوَّاتُ الْمُسْلمينَ إلَى الْمَدينَة بَعْدَ أنْ قَامتْ بهَذا الْعَمَل الْبُطُولىّ الَّذى جَعَلَ الأعْدَاءَ يُفكّرُونَ مرات قبلَ أنْ يَقْدمُوا عَلَى أىّ

عَمَل ضدَّ الْمُسْلمينَ. وكانَتْ هَذه الْمعْرَكَةُ بدَايَةُ اللّقَاءَ مَعَ جُيُوشَ الرُّومانِ الَّذينَ انْتَصَرَ عَلَيْهمُ الْمسْلمُون بَعْد ذلكَ وَفَتَحوا بلاَدَهُمَ.

ولَمْ يَنْسَ رَسُول اللَّه ﷺ هَؤُلاَء الَّذينَ تَعَاوَنُوا مَعَ الرُّومَان من قَبَائل الْعَرَب فَأرسَلَ لهُمْ قُوَّةً لتأديبهمْ قَادَهَا عَمْرُو بْن الْعاص. وكانَ عَمرو يَسيرُ لَيْلاً ويكمُنُ نَهَاراً، حَتَّى وَصَلَ إلَيْهم، فَرَاحَ يَغْزُوهُمْ وَيُأَدِّبَهُم.

كَمَا خَرَجَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْن الَجرّاحِ عَلَى رَأس قُوَّة لنَفْس الْغَرَض، فَانْضَمَّ إلَى عَمْروبن العاص، وقَاتَلُوا الْمشْركينَ وَشَرَّدُوهُم، فَهَرَبوا فى الْبلاَد، وتَقرَّقُوا. ثُمَّ عَادَتْ قُفُول الْمُسْلمين فى سَلاَم إلَى الَمدينَة الْمُنَوَّرَة لتَرْتَفعَ رَايَةُ الإسْلاَم اللَّهُ أكْبَر، لاَ إلَهَ إلاَّ اللَّه، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّه. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

[الحج: ٤٠]

فتح مكة

فى ظُلْمَة اللَّيْلِ اجْتَمَعَ الْمُشْرِكونَ منْ قَبيلَة بكْر وَقَدْ أعَدُّوا أنْفُسَهُمْ للإغَارَة وقتَال الْمُسْلمينَ منْ قَبيلَة خُزَاعَة الَّتى دَخلَتْ فى دين اللَّه حَديثاً، وَقَدْ أمَدَّتْ قُرَيْشٌ قَبيلَة بكْر بالسّلاَح والرّجَال سراً.

فَلمَّا أغَارَ الْمُشركُونَ عَلَى خُزَاعَةَ أصَابُوا وَقَتَلُوا منْهُمُ الْكَثيرَ غَدْراً، وكَانَ مكَانهُمْ بالقُرْب منْ مكَّةَ. فَلَمَّا انْتَهَوْا منْ القْتَال صَاحَ رجَالُ قَبيلَة بكْر قَائلينَ فى فَرَح: يَا بَنى خُزَاعَةَ، إنْ كَانَ عنْدكُمْ رجَالٌ فَدَعُوهُمْ يَأخذُونَ ثَأركُمْ.

أسْرَعَ رَجُلٌ منْ خُزَاعَةَ فَوْقَ فَرَسه نَحوَ الْمَدينَة ليُبْلغَ رَسُولَ اللَّه ﷺ باعْتدَاء الْمُشْركينَ، فَلَمَّا وَصلَهَا علمَ أنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ بالْمَسْجد، فَأسْرَعَ إلَيْه وأبْلَغَهُ مَا جَرَى قَائلاً: إنَّ قُرَيْشاً أخْلَفَت الْوَعْدَ وَخَالفَت الْعَهْدَ وَقَتَلُونَا رُكَّعاً وَ سُجَّداً.

وَفى ذَلكَ الْوَقْت كَانَ كُفَّارُ قُرَيْش وَزُعَمَائهمْ مُجْتَمعينَ يَتَلاوَمُونَ وَيَتَّهمُونَ بَعْضَهُمْ، فَصَرَخَ فيهمْ أبُو سُفْيَانُ قَائلاً: نَعَمْ

لَقَدْ نَقَضْنَا الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ الَّذِى بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَدَرْنَا بِحُلَفَائِهِمْ. وَلَكِنْ لا تَدَعُونَ ذَلِكَ يُفَرِّقُ بَيْنَنَا فَنَحْنُ رِجَالُ قُرَيْشٍ وَأَشْرَافُهَا.

فَقَالَ أَحَدُهُمْ: كَيْفَ تَقُولُ ذَلِكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ؟ وَكَيْفَ تُسَاعِدُ عَلَى ذَلِكَ؟ مَاذَا لَوْ عَلِمَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ بِنَقْضِنَا لِعَهْدِهِمْ وَقَتْلِ أَصْحَابِهِمْ.

قَالَ أَحَدُ الْمُشْرِكِينَ: أَرَى أَنَّنَا نَدْفَعُ أَنْفُسَنَا لِلْحَرْبِ وَالْمُسْلِمون أَصْبَحُوا قُوَّةً لا يُسْتَهَانُ بِهَا. فَقَالَ آخَرُ فِى غَضَبٍ: مَاذَا تَظُنُّون مُحَمَّداً فَاعِلٌ إِذَا عَلِمَ؟ إِنَّنا رِجَالُ قُرَيْشٍ أَقْوَى الْقَبَائِلِ، وَلَدَيْنَا الرِّجَال وَالأَعْوَانُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَلاَ تَجْعَلُوا مَا حَدَثَ يُخِيفُكُمْ.

قَالَ أَبُو سُفْيَانْ: عِنْدَمَا سَاعَدْنَا بَكْراً عَلَى خُزَاعَةَ كُلُّنَا كُنَّا نَعْلَمُ، فَدَعُونَا نُدَبِّرُ الأَمْرَ حَتَّى لا نُثِيرُ غَضَبَ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِه وَأَمَّا إِذَا كُنْتُمْ تُرِيدُونَهَا حَرْباً فَلا بَأْسَ فَنَحْنُ مَازِلْنَا أَقْوَى الْقَبَائِلِ، وَالْمُسْلِمِينَ لاَ يَسْتَطِيعُونَ فِعْلَ شَىءٍ قَدْ يُخَيِّبُ آمَالَهُمْ.

فَقَالَ أَحَدُهُمْ: وَلَكِنَّكَ قُلْتَ يَا أَبَا سُفْيَانَ إِنَّكَ ذَاهِبٌ إِلَى مُحَمَّدٍ لِتُجَدِّدَ الْمُصَالَحَةَ وَأَنَا أَرَاهَا فِكْرَةً صَائِبَةً. فَوَافَقَهُ الْجَمِيعِ عَلَى أَنْ

يَذْهَبَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَيُجَدِّدَ الْمُصَالَحَةَ فَقَالَ لَهُمْ: حَسَناً سَأَذْهَبُ بَعْدَ يَوْمَيْن.

جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى الْمَدِينَة وَطَلَبَ مُقَابَلَةَ الرَسول ﷺ، وَلَكِنَّ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ رَفَضَ مُقَابَلَةَ أَبِي سُفْيَانَ أَو التَّحَدُّثَ إِلَيْه، فَأَسْرَعَ أَبُو سُفْيَانَ إِلى أَبِي بَكْرٍ فَسَأَلَهُ أَنْ يُكَلِّمَ رَسُولَ اللَّه ﷺ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ.

فَأَسْرَعَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب فَكَلَّمَهُ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَ أَنَا أَشْفَعُ لَكُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّه؟ فَوَاللَّه لَوْ لَمْ أَجِدْ إِلاَّ الْقَلِيلَ لَجَاهَدْتُكُمْ بِه، فَذَهَبَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى عَلِيِّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَاعْتَذَرَ لَه عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فَأَظْلَمَتِ الدُّنْيا أَمَامَ أَبُو سُفْيَانَ وَلا يَدْرِي مَاذَا يَفْعَلُ.

رَكِبَ أَبُو سُفْيَانَ بَعِيرَهُ وَعَادَ إِلَى قُرَيْشٍ حَزِيناً، فَقَالُوا لَهُ: مَاذَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: جِئْتُ مُحَمَّدًا فَكَلَّمْتُهُ، فَوَاللَّه مَا رَدَّ عَلَيَّ شَيْئاً، قَالُوا: أَلَمْ يُظْهِرِ الْمُسْلِمُونَ لَكَ شَيْئاً عَنْ حَادِثِ خُزَاعَةَ؟

قَالَ: بَلَى وَلَكِنَّنِي أَشُكُّ فِي الأَمْرِ.

قَالُوا: فَلْنُعِد أَنْفُسَنَا تَحَسُّباً.

أوْحَى اللَّهُ سبحانَهُ وتعالَى إلَى رسُوله بفتْح مكَّة، ووَعَدَهُ اللَّهُ سبحانَهُ وتعالَى بفتْح مكَّةَ، ووَعَدَهُ بنصْرٍ عزيزٍ، فأمَرَ الرَّسُولُ ﷺ أصْحابَهُ بالاسْتعْداد للسَّيْر إلَى مكَّةَ. كمَا أمَرَ فرْقَةً للاسْتطْلاع منْ خَمْسَة أفْراد بالتَّوجُّه إلَى منْطقَة تُدْعَى إضَمْ نَاحيةَ ذى الْمَروة، وتَبْعُدُ عَنْ قُرَيْشٍ ويَسْلكُ لَهَا طَرِيقٌ آخرُ.

فَلَمَّا سَأَلُه أصْحابه عَنِ السَّبَب. قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّه ﷺ: هَذه طَرِيقَةٌ للاخْتفَاءَ والتَّعْميَة عَمَّا نَحْنُ قَادمُونَ عَلَيْه، حَتَّى نَبْغَتَ قُرَيْشاً فى بلادهمْ، فَخَرَجَ رجَالُ الاسْتطْلاَعِ منَ الْمَدينة فى طَرِيقَهمْ إلى إضَمْ.

رَأى ذَلكَ رَجُلٌ منَ الْمُسْلمينَ فكَتَب خطَاباً إلَى قُرَيْشٍ وأعْطَاهُ لجَارِيَة لكَىْ تَذْهَبَ به، فَأخفته الْجَاريةُ بَيْنَ مَلاَبسَهَا، وَخَرَجَتْ منْ الْمَدينَةَ فى طَرِيقَها إلَى قُرَيْشٍ، ولَكنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعَالَى أخْبَرَ رَسُولَهُ بمَا حَدَثَ منْ أمْرِ الْخطَاب.

بَعَثَ الرَّسُولْ ﷺ خَلْف الْجَارِيَة اثْنانَ منْ فُرْسَان الْمُسْلمينَ. وَقَدْ حَدَّدَ لَهُمَا الرَّسَولُ مكَانَهاَ قَائلاً: سَتَجدانهَا فى رَوْضَة خَاخٍ فى طَرِيقهاَ إلَى قُرَيْشٍ.

فَأَنطَلَقَ الْفَارِسَانَ إِلَى الْمكَانِ الْمُحَدَّدِ وَهُنَاكَ وَجَدَا الْجَارِيَةَ.

فَلَمَّا سَأَلاَهَا عَنِ الْخِطَابِ الَّذِى مَعَهَا لقُرَيْشٍ أَنْكَرَتْ، وَقَالَتْ: مَا مَعِى كِتَابٌ. فَقَالاَ لَهَا: مَا كَذَبَ رَسُولُ اللهَ ﷺ، فَإِنْ لَمْ تُخْرِجِى الْكِتَابَ الَّذِى مَعَكِ أَخَذْنَاكِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَخَافَتِ الْجَارِيَةُ وَأَخْرَجَتِ الْكِتَابَ مِنْ بَيْنَ مَلاَبِسِهَا وَدَفَعَتْهُ إِلَيْهِمَا.

فَأَتَيَا بِهِ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَرَأَهُ وَعَرَفَ صَاحِبَهُ الَّذِى حَاوَلَ أَنْ يُبلِغَ قُرَيْشاً بِأَنَّ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ قَادِمٌ إِلَيْهِمْ. فَدَعَى الرَّسُولُ ﷺ صَاحِبَ الخِطَابِ وَسَأَلَهُ عَنِ السَّبَبِ فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ الله وَاللّه إِنِّى مُؤْمِنٌ بِالله وَرَسُولِه وَلَمْ أَرْتَدْ وَلكِنْ لِى فِى قُرَيْشٍ أَهْلٌ وَوَلَدٌ قَدْ يُؤْذُونَهُمْ، فَأَرَدْتُ أَنْ يَحْمُونَهُمْ بِهَذَا الْعَمَلِ.

فَأَرَادَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الَّذِى كَانَ حَاضِراً أَن يَأْذَنَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِأَنْ يضْرِبَ عُنُقَ الرَّجُلِ جَزَاءَ فِعْلَتِه، لأَنَّهُ خَائِنٌ. فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ: أَنَّه قَدْ شَهِدَ بَدْراً وَلَعَلَّ اللهَ يَغْفِرُ لأَهْلِ بَدْرٍ مَا يَعْمَلُونَ. ثُمَّ أَعْتَقَ الرَّجُلَ. . وَبَيْنَمَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ لاَ يَعْلَمُونَ أَىَّ خَبَرٍ عَنْ تَجْهِيزِ الْمُسْلِمِينَ جَاءَهُمْ بَعْضُ أَصْحَابِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

فَقَالُوا لَهُمْ: لَقَدْ رَأَيْنَا بَعْضَ فُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ تَتَّجِهُ شَمَالاً نَحْوَ

إضمِمْ مُنْذُ يَوْمَيْنِ، فَأَتَيْنَا لإبْلاَغكُمْ. فَقَالَ أَحَدُهُمْ: لاَبُدَّ أَنَّهَا فِرْقَةُ اسْتِطْلاَعِ الْمُسْلِمِينَ. وَقَالَ آخَرُ: لاَبُدَّ أَنَّ مُحَمَّداً وَأَصْحَابَهُ يُجَهِّزُونَ لِبَعْضِ الْقَبَائِلِ هُنَاكَ.

قَالَ أَبو سُفْيَانَ ضَاحِكًا: وَمَاذَا يُعْنِينَا؟ طَالَمَا أَنَّ مُحَمَّداً وَأَصْحَابَهُ يَبْعُدُونَ عَنَّا.

خَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ مُتَّجِهاً إِلَى مَكَّةَ وَمَعَهُ عَشْرَةُ آلاف مِنْ أَصْحَابِهِ وَكَانَ ذَلِكَ فِى شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَك، وَكَانَ الرَّسُولُ وَجَمِيعُ أَصْحَابِهُ صَائِمُونَ، وَاسْتَمَرُّوا فِى السَّيْرِ، فَإِذَا غَرَبَت الشَّمْسُ أَفْطَرُوا جَمِيعاً حَتَّى نَزَلُوَا فِى مَكَانٍ يُدْعَى مَرَّ الظَّهْرَانِ، فَعَسْكَرُوَا بِهِ.

غَادَرَ الرَّسُولُ ﷺ مَرَّ الظَّهْرَانِ إِلَى مَكَّةَ، فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْهَا نَزَلَ بِجَيْشِهِ بِذِى طُوَى. فَلَمَّا رَأَى كُفَّارُ قُرَيْشٍ ذَلِكَ صُعِقُوا مِنَ الْمُفَاجَأَةِ، إِذْ أَنّ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُمْ. فَتَجَمَّعَ سُفَهَاءُ قُرَيْشٍ وَعَلَى رَأْسِهِم عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِى جَهْلٍ، وَصَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ وَسُهَيْلُ وَحَمَّاسُ بْنَ قَيْسٍ مِنْ قَبِيلَةِ بَكْرٍ.

رَاحَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ يُعدُّونَ أَنْفُسَهُمْ لقتَال الْمُسْلمينَ وَقَدْ أَعْمَاهُمْ الْغُرُورُ وَالْحقْدُ، بيْنَمَا رَاحَ أَبو سُفْيَانَ وكَانَ قَدْ أَسْلَمَ يَصْرُخُ فى أَهْلِ قُرَيْشٍ قَائلاً: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ.. يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، هَذَا مُحَمَّدٌ قَدْ جَاءَكُمْ فيما لاَ قبلَ لَكُمْ به فَمَنْ دَخلَ دَارَ أَبى سُفْيَانَ فَهُوَ آمنٌ وَلَنْ يَمَسَّهُ الْمُسْلمُونَ بأذىً، فَلاَ دَاعى لأنْ تُقَاتلُوا، وَدَعُوا السّلاَحَ جَانبَاً.

فَأسْرَعَ بَعْضهُمْ إلَى بَيْت أَبى سُفْيَانَ للْحمَايَة به وَرَفَضُوا أنْ يُشَاركُوا فى قتَال الْمُسْلمينَ، بيْنَمَا تَعَجَّبَ الْبَعْضُ منْ مَوْقف أَبى سُفْيَانَ الَّذى يَدْعُوَا للإسْتسلاَم، وَرَفَضُوا أنْ يَذْهَبُوا لبَيْته، فَقَالَ لَهُمْ: وَمَنْ دَخلَ الْمَسْجدَ فَهُوَ آمنٌ، وَمَنْ دَخلَ بَيْتَهُ وأغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمنٌ. فَلاَ دَاعى لأنْ تُقَاتلُوا. ولَكنَّ الْغُرُورَ جَعَلَ بَعْضَهُمْ يَحْملُ السّلاَحَ للْقتَال.

وَزَّعَ رَسُولُ الله ﷺ جَيْشهُ إلَى فرَق، وَقَدْ تَولَّى خَالدُ بْنُ الْوَليد فرْقَةً منْهَا وأمَرَهُ الرَّسُولُ ﷺ أنْ يَدْخُلَ مكَّةَ منْ مكَان مُحَدَّد فَإن اعْتَرَضَهُ أَحَدٌ منَ الْمُشْركينَ حَصَدَهُ. كَمَا تَولَّى الزُّبَيْرُ بْنَ الْعَوَّام فَرْقَةً وَحَدَّدَ لَهُ الرَّسُولُ مَكَانَ دُخُوله، وَطَلَبَ منْهُ أنْ يَغْرزَ رَايَتَهُ

بِالْحُجُونِ، وَلاَ يَبْرَحُ مَكَانَهُ حَتَّى يَأتِيَهُ الرَّسُولُ ﷺ .

كَمَا تَوَلَّى أَبُو عُبَيْدَةَ فِرْقَةً وَطَلَبَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَأخُذَ بَطْنَ الْوَادِي ، وَكَذَلِكَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ وَعَلِيَّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَى رُؤُوسِ الْفِرَقِ الْمُقَاتِلَةِ كُلٌّ حَسَبَ الْخُطَّةِ الْمَوْضُوعَةِ مِنْ رَسُولِ اللهِ، فَطُوِّقَتْ مَكَّةَ بِالْفِرَقِ الإِسْلاَمِيَّةِ، وَتَحَرَّكَتْ كُلُّ فِرْقَةٍ مِنَ الْجَيْشِ الإِسْلاَمِيِّ عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي كُلِّفَتِ الدُّخُولَ مِنْهَا .

فَلَمَّا دَخَلَ الْمُسْلِمُونَ مَكَّةَ كَانَ هُنَاكَ قِتَالٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، فَقَتَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنْهُمُ الْكَثِيرَ، وَفَرَّ الْبَاقُونَ طَالِبِينَ الْجَاةَ، بَيْنَمَا تَقَدَّمَ الزُّبَيْرُ وَقَتَلَ مَنْ تَعَرَّضَ لَهُ حَتَّى نَصَبَ رَايَةَ الْمُسْلِمِينَ فَوْقَ مَكَّةَ، وَهَكَذَا دَخَلَ الْمُسْلِمُونَ مَكَّةَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ بِهَا .

دَخَلَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ مَكَّةَ وَحَوْلَهُ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارَ حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ فَأَقْبَلَ إِلَى الْحَجَرِ الأَسْوَدِ ثُمَّ طَافَ بِالْبَيْتِ وَكَانَ حَوْلَهُ ثَلاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَماً فَرَاحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَطْعَنُ الأَصْنَامَ قَائِلاً: «**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ كَانَ زَهُوقاً**» . وَرَاحَتِ الأَصْنَامُ تَتَسَاقَطُ

عَلَى وُجُوهِهَا .

تَجَمَّعَتْ قُرَيْشٌ كُلُّهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَرَوْنَ أَنِّى فَاعِلٌ بِكُمْ ؟ قَالُوا : خَيْراً . أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ ، قَالَ : فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسفُ لإِخْوته ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف : ٩٢]، اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ .

فَلَمَّا حَانَتِ الصَّلاَةُ أَمَرَ رَسُولُ اللّه ﷺ بلاَلاً أَنْ يَصْعَدَ عَلَى الْكَعْبَةِ وَيُؤَذِّنَ فَانْطَلَقَ صَوْتُ بِلاَلٍ يَؤَذِّنُ فِى سَمَاءِ مكَّة :

اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ. لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه

وَهكَذَا فَتَحَ اللهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَنَصَرَهُمْ نَصْراً عَزِيزاً .

وَصَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ. وَقَدْ تَبَيَّنَ لأَهْلِ مكَّةَ الْحَقُّ فَأَسْلَمُوا وَبَايَعُوْا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ .

غزوة الطائف

بَعْدَ أن انْتَهَى رَسُولُ الله ﷺ مِنْ مَعْرَكَةِ حُنَيْنٍ، وَبَعْدَ أنْ نَصَرَهُ اللَّهُ عَلَى أعْدَائه. سَارَ إلى الطَّائفَ لِيُحارِبَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ هَرَبُوا إلَيْهَا، وكَانَ مُعْظَمُهُمْ مِنْ كُفَّارِ هَوَازِنَ وثَقِيف وَمَعَهُم قَائِدهُمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ.

تَحَرَّكَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَمَعَهُ خَالدُ بْنُ الْوَلِيد نَحْوَ الطَّائف وَمَعَهُم جَيْشُ الْمُسْلمينَ الَّذى كَانَ يَزِيدُ عَلَى أَلْفَىْ مُقَاتِلَ، وَقَدْ جَعَلَ الرَّسُول ﷺ فى مُقَدّمَة قُوّاته عيُوناً تَرْقُبَ لَهُ الطَّرِيق عَنْ بُعد، وَجَعَلَهُمَ أيْضاً يَسلكُونَ طَرِيقاً غَيرَ مألُوف.

كَانَ مَالكُ بْنِ عَوْف مُنْذُ أنْ وَصَلَ إلَى الطَّائف وَمَعَهُ الهاربينَ مِنْ مَعْرَكَة حُنَيْن قَد تَحَالَف مَعَ أهَلِ الطَّائف وَأعَدَّ جَيْشَاً قوياً وَتَحَصَّنُوا بحصُونهم خَوْفاً منَ قُدوم جَيْشِ الْمُسْلمينَ. وَقَدْ عيَّنَ عُيُونَاً لَهُ على الطَّرِيق لتَنقلَ إلَيْه الأخْبَارَ.

وفَجْأةً رأى مَالكُ بْن عَوْف مِنْ حِصْنه قُوّاتُ الْمُسْلمينَ تأخذُ

مَواقعَها بالقُرب من حصنه، وقَد فَرضَت الْحصَار عَلَى أهْلِ الْحصنِ. فَراحَتْ قوّاتُ الْمُشركينَ تَقْذفُ قَوّاتُ الْمسلمينَ بالسِّهَامِ فى كَثْرَةٍ وَشدَّةٍ.

وَبَعْدَ ذَلكَ بَعَثَ مَالكُ بْنِ عَوْف منْ حصنْه برسَالَة إلَى جَيْش الْمُسْلمينَ يَقُولُ فيهَا: الْمَوْتُ يَنْتَظرُكَمَ، فَقَدْ أعْددْنَا الْعُدَّةَ لقتَالكُمَ، فَمَنَ شاءَ يَعتَذرُ، وَمَنْ ذَهَبَ حَمَى نَفْسَهُ منَّا، وَمَعَنَا مَنَ الطَّعَامِ مَا يكْفينَا. ولَكنّ مَالكاً رأى الْعَزْمَ وَالإصرارَ منَ الْمسْلمين للقضَاء عَلَيه وَمَنْ مَعَهُ إذا طَالَ الْحصارُ أيَّاماً طَويلَةً.

اجْتَمَعَ زُعَمَاءُ الطَّائف منَ الْمُشْركينَ بمَالك بْن عَوْف وَقَالُوا لَهُ: إلَى أىَّ مَدَى يظَلُّ حصَارُ جَيْش الْمُسلمينَ لَنَا، إنَّ الرِّجَالَ فى الْحصْنَ فَقَدُوا عَزيمتَهُمْ وقُدْرَتَهُمَ عَلَى الْقتَال، وَنَحْنُ نَرى أصْحَاب مُحَمد عَازمُونَ عَلَى قَتْلنَا.

قَالَ مَالكُ بْنَ عَوف فى غَضَب: لَقَدْ هَرَبْتُ منْ قبضة أصْحَاب مُحَمد فى حُنين، ولَنْ أقَعَ مرةً أخْرَى فى قبضَتهم، وَمازَالَ مَعى

الكثير لمقاومة محمد وأصحابه، فإنْ خارتْ قواكم وتعبتم من شدة الحصار، اخرجوا من الحصن وسلّموا أنفسكم لهم.

وبعد هذا الحصار الذى أفقد العدوَّ صبره وعزيمته أمر رسول الله ﷺ رجاله بنصب آلة تستخدم فى قذف الحجارة تسمّى «المنجنيق» فنصّبه المسلمون وراحوا يقذفون الحصن حتى يتحرّك الموقف ويخاف العدوّ.

عندما قذف المسلمون الحصن حدث فيه شرخ من كثرة القذائف المُلقاة عليه، وتحرّك بعض أفراد المسلمين داخل عربة من الخشب نحو الشرخ، وراحوا يُحدثون فتحةً بالحصن، ولكنّ مالكاً كان يُعدّ لمثل هذا الأمر. فلمّا رأى ذلك أشار إلى قوّاته التى تُرابطُ فوق الحصن.

فأرسل العدوُّ عليهم حديداً ساخناً وسائلاً مغلياً، فأسرع أفراد المسلمين عائدين إلى مواقعهم. فلمّا رأى ذلك الرسولُ ﷺ انتظر حتّى حلّ الظلام، وأمر رجاله بقطع الأعناب والثمار التى

تُحيطُ بالْحِصنِ ثُمَّ يَحرِقُونَهَا بَعدْ ذَلك.

فَقَطَعَ الْمُسْلِمُونَ منْهَا الْكثيرَ، فَلَمَّا رأى ذلكَ الْكُفَّارُ خَافُوا أنْ يُصيبَهُمْ الْجُوعُ، فدعُوا الرَّسُولَ ﷺ أنْ يَتْرُكَها لله وللرَّحم فَتَركَهَا الرسولُ ﷺ للَّه وَلِلرَّحِمِ. وَكَانَ مَالِكُ بْن عَوْفٍ قَدْ بَدَأ يَفْقِدُ صَبْرَهُ وَشَجَاعَتَهُ.

ثُمَّ أمرَ رَسُولُ اللَّهُ ﷺ أحَدَ رجَاله أنْ يُنَادى فى أهْلِ الْحِصْنِ أنَّهُ مَنْ خَرَجَ فَهُوَ آمنٌ، فَلَمَّا فَعلَ ذَلكَ خَرجَ إليه بَعْضَ الْكفَّار، فَأعْتَقَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ

فَلَمَّا طَالَ الْحِصَارُ ولَمْ يَتَمكَّنَ الْمُسْلِمون من أهْلِ الْحِصنِ، اسْتَشَارَ الرَّسُولُ ﷺ أصحَابَهُ فى أمْرَ الْحِصْنِ، فَقَال لَهُ نُوْفَلُ بْن مُعَاوِيَةَ: يا رَسُولَ اللهُ، ثَعْلَبٌ فى جُحْرٍ، إنْ أقَمْتَ عَلَيْه أخَذتَهُ، وإنْ تَركْتَهُ لَمْ يضُرُّكَ، وَحينئذ أمَرَ الرّسُولُ ﷺ أصْحَابَهُ برَفْعِ الحِصَارِ عَنِ الْحِصْنِ وَالرَّحِيل بَعْدَ ذَلكَ.

فَقَالَ عُمَرُ بْن الْخَطَّاب رضي الله عنه مُخَاطِباً الْمُسْلِمينَ: إنَّا عَائدُونَ

غَداً إنْ شَاءَ اللَّهُ بأمْرِ رسولِ اللَّه ﷺ ، فَحزنَ الْمُسْلمُون وَقالُوا: أنَذهَب ولاَ نَفْتَحَهُ؟ ؛ فَقَالَ لَهُم رَسُولُ الله ﷺ : « **غداً قَاتلُوا** » . فَلَمَّا جَاءَ الْغَدُ وَقَاتَلُوا أصيب بَعضُهم بِجرَاحٍ . فَلَمَّا عَادُوا قَالُوا: آيبُونَ تَائبُونَ عَابدُونَ لَربِّنَا حَامدُونَ .

فَلَمَّا عَادَ رَسُولُ الله ﷺ إلَى الْمَدينَة الْمُنَوَّرَة وَاطْمَأنَّ عَلَى مكَّةَ وَالْقَبَائل الْمُجَاورَة وَأصْبَحَتْ يَحْكُمَهَا الْمُسْلمُونَ، رَاحَ يَبْحَثُ فى أمرِ الْقَبَائلِ الَّتى ما زَالَتْ عَلَى الشِّرْك .

وَفى شَهْرِ رَبيعٍ الأوّل منَ الْعَامِ التَّاسعِ الْهجْرىّ، أمَرَ الرَّسُولُ ﷺ بخُرُوجِ عَلىّ بْنَ أبى طَالبٍ فى قُوَّة إلى قَبيلَة طَىءْ وَالَّتى تَبْعُدُ عَن الْمَدينة مَسيرة أيَّام، وَكَانَتْ هَذه القَبيلَةُ تُشْركُ باللَّه، وَتَعبُدُ الأصْنَامَ، وَتقُومُ بأعْمَال الْقَرْصنَة عَلَى تُجَّار الْمُسْلمين، وأمَر الرَّسُولُ ﷺ عَلىَّ بن أبى طالبٍ وَفرقَتَهُ بتَحْطيم الأصْنَام .

فَلَمَّا علمَ عَدىُّ بْنُ حَاتمِ الطَّائىّ زَعيمُ قَبيلَة طىء باقْترَاب جَيْش الْمُسْلمين نَحْوَهُ، خَافَ عَلَى نَفْسه وَأسْرته، وانتظَرَ حَتى حَلّ

الظّلاَم ونامَت الْقَبيلَةُ ، فَهَرَبَ هُوَ وأسرَتهُ دُونَ أنْ يَدْرى بِهِم أحَدٌ مِنَ الْقَبيلة وفى الطَّريق بَحَثَ عَدىّ عَنْ شُيْقَتِه فلَمْ يَجِدْهَا ، وَاكْتَشَفَ عَدىّ أنَّهُ قَدْ نَسِيَهَا .

وَفى الصَّبَاحِ اكْتَشَفَ رِجَالُ قَبيلَة طَىْء هُرُوبَ قَائدهُمْ وَزَعيمِهِمْ فَتَحَصَّنُوا وَحَمَلُوا السِّلاَحَ لِقتَالِ الْمُسْلِمينَ فبعَثَ إلَيْهِم عَلَىّ بنْ أبى طَالب قَائد الْمُسْلِمين يُطَالِبُهِم بالإسْلامِ الَّذى يَضْمَنَ لَهُمْ الأمَانَ . فَمَن تَركَ سِلاحَهُ وَجَلسَ داخِلَ بيته فَهُوَ آمِن . فَاخْتَلَفَ رِجَالُ الْقَبيلَة فيمَا بينَهُم .

فَبَعْضُهُمْ رَأى أنْ يُسْلِمُوا وَبَعْضُهُم رَأى أنْ يُقَاتِلُوا ، فَدَبَّ الصِّراعُ بينَهُمْ . فَدَخَلَهَا جيشُ الْمُسلِمينَ ، وأسروا رِجَالَهم بَعْدَ مناوشات وَقِتَال قَصير . ثُمَّ قَامَ الْمُسلِمُونَ بَعْدَ ذَلكَ بتَحْطِيمَ أصْنَامِهِمْ وَمَعَابِدِهِم ، وأخَذُوا مَعَهُمُ السَّبْىَ وَالْغَنَائِمَ .

وَلَمَّا سَألَ الْمُسْلِمُونَ عَنْ عَدىّ بْنِ حَاتِم قَالُوا : لَقَدْ هَرَبَ عَدىّ وَتَركَ أخْتَهُ . فقَالَتَ أختُ عَدىّ : مَا لَكُمْ يَا أصْحَابَ مُحمّد

وَمَالُ عَدىّ أَلَمْ تُسيبُوا مَا أَتيتُمْ مِنْ أجْله؟ وَقَدْ حملَتْ أَيْديكم الْغَنَائمَ وَالسَّبى. فَأخَذَهُمُ الْمُسْلمُونَ جَميعاً إلى الْمَدينَة.

وَلَمَّا جَاءُوا إلَى الْمَدينَة الْمُنَوَّرَة وَجَمَعُوا الأسْرَى فى مكَان أمين فَلَمَّا أتَى رسُولُ الله ﷺ وَرَأى الأسْرَى اسْتَعْطَفَتْ أخْتُ عَدىّ بْن حَاتم قَائلَةً للرَّسُولُ ﷺ : يَا رَسُول الله، غاب الْوَافدَ ، وانْقَطَعَ الوَالد، وأنَا سَيْدةٌ كَبيرةٌ فَمنَّ علىَّ مَنَّ اللّف عَلَيْكَ.

فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «**مَنْ وَافدُك؟**» قَالَتْ عَدىُّ بْنَ حَاتم: قَالَ: «**الَّذى فَرَّ من الله وَرَسوله؟**» ثُمَّ مَضَى رَسُولُ الله ﷺ. وَفى الْيَوْم التَّالى قَالَتْ مَا قَالَتْهُ بالأمْس وَاسْتَمرَّتْ عَلَى ذَلكَ أيَّاماً. فَمَنَّ عليهَا الرسُوُل الْكَرِيمُ، وَخَرجَتُ للَمدينة حُرَّةً فَأسْلَمَتْ لله تَعَالَى.

وَبَعْدَ ذَلكَ خَرَجَتْ منَ الْمَدينَة تَبْحَثُ عَنْ أخيهَا فى الشَّامَ فَلَمَّا اسْتَدَلَّتَ عَلَيْه وَعَرَفَتْ مكَانَه، ذَهَبَتْ إلَيه، فَرَحَّب بهَا فى أسف

فَقَالَتْ لَهُ: لَقَدْ فَعَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مَالمْ يَفْعَله أَبوكَ فَهيَّا مَعى يَا عَدىّ رَاغباً مُتَقَرّباً للَّه تَعَالَى، ولِتَلْحقَ برَسُول الله ﷺ.

فَلَمَّا جَاءَ عَدىٌّ إِلَى الْمَدينةَ الْمُنَوَّرَة طَلَبَ مقَابَلَةَ الرَّسول ﷺ فَلَمَّا قَابَلَهُ قَالَ لَهَ رسُولُ اللَّه ﷺ: «**مَا يَغرُّكَ؟ أيَغرُّكَ أنْ تَقُولَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه؟ هَلْ هُنَاكَ إِلهٌ سوى الله؟**» وَرَاحَ النَّبىُّ ﷺ يُحَدّثُ عَدىٌّ عَنْ الإِسْلاَمِ فأسْلَمَ عَدىّ قَائلاً: أشْهَدَ أنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه، وَأشَهْدُ أن مُحَمداً رَسُولُ اللهَ، وَقَدْ انْبَسَطَ وَجْهُهُ فَرحاً. وانْضَمَّ إِلَى أفْرَادِ قَبيْلته الَّذين أسْلَمُوا.

فَلَمَّا عَلَمَتْ قَبيلَةُ بَنى كلاَب مَا صَارَ إِلَيْه عَدىٌّ بْنَ حَاتمٍ وَقَوْمهُ، أعدّت نفسَهَا لقتال الْمُسْلمينَ حينَ يأتون إِلَيْهم، وقد أَبَىْ زُعَمَاءَهُمْ أنْ يَدْخلوا فى الإِسلاَمِ، وراَحُوا يُقيمُونَ أصْنَامَهُمْ عَلَى مَشَارِف الْقَبيلة بالوَادى لكى تْحميهمْ منَ الْمُسْلمينَ.

فَبَعَثَ إِلَيْهمْ رَسُولُ اللَّه ﷺ أحَدَ صَحَابَته ليَدْعُوهمْ إِلَى الإِسْلاَم فَرفَضُوا وَقَالُوا: لَنْ نكُونَ أصْحابَ مُحَمّد. فَلَمَّا عَادَ

الصَّحابى إلى الْمَدينَة أمَر الرَّسُولُ ﷺ الضَّحَّاكُ بْنَ سُفْيَان أنْ يُجَهّزَ فَرْقَةً إلَى بَنى كلاَب .

خَرَجَ الضَّحَّاكُ بن سُفْيَانَ بفرْقَته منَ الْمَدينَة الْمُنَوَّرَة إلَى قَبيلَة بَنى كلاَب ، فَلَمَّا وَصَلَهَا دار قتالٌ عَنيفٌ بَيْنَهما ، واستطَاعَ الضَّحَّاكُ فى هَذه الْمَعْرَكَة أنْ يَهْزم بَنَى كلاَبٍ وأنْ يَرْفَعَ الْمُسْلمُونَ رَايَتَهمْ فيهَا .

فَأسْلَمَ بَعْضُ قَبيلَة بَنى كلاَب وَخَرَجَ البَاقى الَّذى بَقىَ عَلَى الشّرْك . وَهكَذَا كَانَتْ رايَةُ الإسْلاَم تَرْتَفعُ عاليةً خفَّاقَة فى كُلَ مكانَ بتَأييد الله وَنَصْره للْمُؤْمنين وفى ذَلكَ يَقُولُ اللَّهُ :

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمنين ﴾ .

[الروم : ٤٧]